محمد إقبال

سيرته وفلسفته وشعره



الدكتور عبد الوهاب عزام

سفير مصر في باكستان

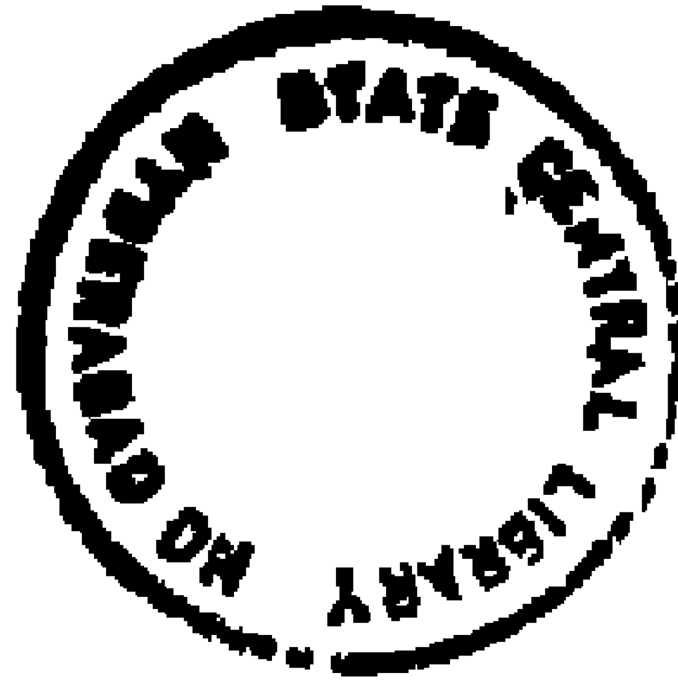
الثمن ٢٠ قرشا

مطبوعات باكستان

١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م

محمّد إقبال

سِيرَتُه وَفلسَفتُه وَشِعْرُه



الدكتور عبد الوهّاب عزّام

سفير مصر في باكستان

مطبوعات باكستان

١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م



المغفور له الدكتور محمد اقبال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

— ١ —

محمد اقبال شاعر نابغة . وفيلسوف مبدع ، احتفل فى باكستان وغيرها فى نيسان الماضى بالذكرى الرابعة عشرة لوفاته . وذكره يشيع ، وصيته يذيع على مر الأيام . ولا سيما منذ نشأت دولة باكستان — وهى حقيقة تخيلها والناس منه يضحكون ، ويقظة حلم بها واليائسون به يتفكهون .

احتفى الناس بذكراه كل عام . وكثرت المجامع فى كل ذكرى ، تشيد بدعوته ، وتدعو الى رسالته . وشرع أدباء الأمم يعنون بترجمة شعره الى لغاتهم .

وقد سئلت أن أكتب فى سيرته وفلسفته وشعره كتابا مجملا ، أجعله مقدمة لتفهم دواوينه التى ترجمتها الى اللغة العربية . فأجبت على العلات ، وعلى كثرة الشواغل .

وأنا لا أدعى الى اقبال الا لبيت . استجابة لما فى نفسى من عشق ، واكبارا لهذا الشاعر الفيلسوف المؤمن .

وهذه مقدمة أقدمها تعريفاً به . أقدم فيها ما يقرب الى القارىء صورته ويجمل له دعوته ، ليتهيأ لقراءة هذا الكتاب طلبا للتفصيل ورغبة فى المزيد ، وشوقا الى شعر بدع وفلسفة أنف ، واعجابا بالفكر المحلق ،

والمفكر الحر ، والفيلسوف الذي لا يَسير مع الزمان ، ولا يخضع لتقلب الحِدثان ، والشاعر الذي يَنفخ الحياة فى المَوات ، ويبعث فى القفر ألوان النبات ، ويُشعِل الجمر الخامد ، فى الرماد الهامد .

أبين فى هذه الكلمات كيف سمعت بإقبال اسما مبهما وقولاً مُعجَماً ، وكيف زادت معرفتي به على مرّ الزمان حتى وقعتُ فى بحره وسَبحتُ فى لُجّه ، ثم أويتُ الى الساحل أنظر العباب الزاخر ، والآذيّ الثائر ، وأصف ما رأى لمن لم يعرفه معرفتى ، ولم يولَع به وَلوعى .

— ٢ —

سمعت وأنا فى بلاد الانكليز ، قبل وفاة الشـاعر بأكثر من عشر سنين، أن فى الهند صوفيا اسمه اقبال له نظرات فى التصوف ، وله فلسفة فى النفس ، وأنّ ذكره جاء فى بعض المجلات الأوربية ، وكلامه نُشر فيها . وأنا نزّاع الى الصوفية منذ نشأتُ . وزادنى معرفةً بها ورغبةً فيهـا وحبًا فى المزيد منها ، أن تعلمتُ اللغة الفارسية وقرأت الشعر الفارسى ؛ وأعلامُ شعراء الفرس وأشدّهم استيلاء على النفوس واستحواذاً على القلوب هم الصوفية منهم . وقد أثّروا تأثيرهم فى الشعر الفارسى حتى لا يخلو شاعر فارسى من نفحة صوفية .

لبثتُ متشوقا الى اقبال ، أخبارِه وشعره وفلسفته . على قِلّة ماسمعت عنه ، وعلى غموضه وعلى كثرة شواغلى .

— ٣ —

وما أحسب علمي به زاد على هذه النُتَف من الأخبار ، حتى صحبت الصديق الشاعر محمد عاكف ، رحمه الله — وكان صديقى ورفيقى وأنيسى فى حُلوان دارِ اقامتنا ، وفى جامعة القـاهرة — فأرانى يوما ديوان پيام مشرق أحد دواوين الشـاعر اقبال . وما قرأت من قبل ولا سمعت من شعر اقبال كثيرا ولا قليلا .

وقال محمد عاكف : ان صديقا — وأحسبه سفير تركيا فى أفغانسـتان



الدكتور عبد الوهــاب عزام

يومئذ ــ أرسله الي • فأقبلنا على الديوان نقرأ معـاً فنتعجب بالفكر والشعر ، ونتنقل فى روضة أنق تلقى العينَ والنفسَ ببهجتها من النوار والزهر ، مختلف الألوان والأشكال ، مؤتلف الرونق والجمال •

عرفت اقبالا فى كلامه يومئذ ، ولكنها معرفة مَن قرأ قليلا من كلامه ، غير خبير بعبـاراته ، ولا عارف بأشاراته ، ولا مدرك فلسفته ومذاهبه ودعوته ومقاصده •

ولا تزال نسخة پيام مشرق التى أعارنى اياها الصديق محمد عاكف ، عندى ، عليها علاماته فى مواضع الاعجاب ، أو مواضع السجود من الشعر كما قال الفرزدق [1] وهى عندى ذكرى اللقاء الأول لقاء اقبـال فى ديوان رسالة المشرق ، وذكرى شاعر الاسلام محمد عاكف •

ثم أهدى الي أحد مسلمى الهند ، وقد عرفه حبى اقبالا وحرصى على الاستزادة من كلامه ، المنظـومتين : أسرار خودى ورموز بى خودى • فرأيت فيهما أسلوبا بدعا من الفلسفة التى سماها فلسفة خودى (الذاتية) وطريقة عجبًا فى الشعر ؛ ومذهبا معجبا فى التأليف بين مذهبـه وبين الاسلام ، عقائده وفلسفته وحضارته وتاريخه • وما زال أصحـابى فى بلاد العرب والعجم يتحفوننى بما تناله أيديهم من دواوين اقبال ، فأزداد معرفة به واعجاباً وحبّاً وغراماً •

وشرعت أنشر ترجمة منثورة لشعره فى مجلة الرسالة • ولا أدرى كم واليت نشر قطع من شعر اقبال وعرّفت به • وقد دعيت قبل وفاة الشاعر ببضع سنين وأنا فى مدينة الاسكندرية ، الى التحدث عنه • وكان الأدباء فى بلاد

---

(١) يروى ان الفرزدق سمع بيت لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها   زبر تجد متونها أقلامها

فسجد • فسئل عن السجود فقال انا معشر الشعراء نعرف مواضع السجود فى الشعر

العرب عرّفوه بى ، وعرّفونى به • فتحدثت بما راع السامعين من فلسفة الشاعر وشعره •

وشرعت سنة ١٩٣٦ م أنظم منظومة سمّيتها اللمعات وأهديتهـا الى اقبال ونشرت مقدمتها فى مجلة الرسالة [1] •

— ٤ —

وكان من سعادة الجدّ وغبطة العين والقلب ، أن قدم اقبال مصر فى طريقه الى المؤتمر الاسلامى الذى اجتمع فى المسجد الاقصى سنة ١٩٣١ م

ودعت جمعية الشبان المسلمين الى الاحتفـال بالرجل العظيم • واقترح أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجـار رحمه الله أن أقدّم محمد اقبـال الى الحضور، اذ كنت ، على ضآلة معرفتى، أعرّف الحاضرين به • وكان هذا شرفا لى وسرورا ، وفاتحة من عالم الغيب لصحبة طويلة ؛ صحبـة المريد للمرشد ، والتلميذ للأستاذ ، ومقدمةً لجهد مديد فى الكتابة عن الشاعر والحديث عنه ، وترجمة دواوينه الى العربية •

تحدثت ما وسعت معرفتى ، وأنشدتُ أبياتا من ديوان رسـالة الشرق علِقت بذهنى •

وهى فيما أتذكر :

أى كه در مدرسه جوئى أدب ودانش وذوق
نه خورد باده كس از كارگه شيشه گران
خرد أفزود مرا درس حكيمان فرنگ
سينه أفروخت مرا صحبت صاحب نظران
بر كش أين نغمه كه سرمايه آب وگل نست
أى زخود رفته تهى شو زنواى دگران

(1) نشرت من بعد مع ترجمة رسالة المشرق فى كراچى سنة ١٩٥٠.

وترجمتها :

يامن يطلب فى المدرسة المعرفة والأدب والذوق ! ان أحداً لا يشرب الخمر فى مصنع الزجاج .

قد زادت دروس حكماء الفرنج عقلى ، وأنارت صحبة أصحاب البصائر قلبى .

أخرج النغمة التى فى قرار فطرتك . ياغافلا عن نفسك ! أخلِها من نغمات غيرك .

وكذلك أنشدت هذه الشطرات :

أى كرمك شبتاب سراپاى تو نور است
پرواز تو يك سلسلهء غيب وحضور است
آئينِ ظهور است

وترجمتها :

يالك من يراعة تصوَّرت من نور
مسيرها سلسلة الغياب والحضور
وسنة الظهور

وقلت له حين انفض المجلس : لا تؤاخذنى ، ليس فى وسعى أن أنشد شعرك خيرا مما أنشدت . فقال : حَسَنٌ ! أنشدت صحيحا . ووقف اقبال بعد أن عرفت الحاضرين به تعريفا موجزاً فتكلم بالانكليزية فى أحوال المسلمين ، وتطور الفكر الاسلامى . وأفاض ماشاء علمه وبيانه . ومما وعيته من هذا الكلام قوله عن الصوفية : انهم علماء النفس بين المسلمين.

وقد وُكل الى الاستاذ محمد الغمراوى أن يسجّل خلاصة خطاب اقبال ويقرأها على الحضور . فكتب وحاول أن يترجم ما كتب ارتجالا . ثم رأى أن يُترجِم على روية وينشر الترجمة فى مجلة الشبان المسلمين . وقد

حرصتُ على لقاء الشاعر من بعد ، ولكن ضيق الوقت قبل سفره الى القدس لشهود المؤتمر الاسلامى لم يُبلِغنى ما حَرَصتُ عليه ، الا لقاء للوداع فى محطة القاهرة .

— ٥ —

ولبثت أكتب عن اقبال ، وأترجم من شعره ، ما وسع وقتى وعلى قدر فقهى وعلمى بسيرته حتى نُعِىَ الينا فى نيسان من سنة ١٩٣٨ م .

فكان كما قال أبو تمام : أصمّ بك الناعى وان كان أسمعا .

وقد احتفلت جماعة الأخوة الاسلامية بتأبينه — وكنت يومئذ رئيس الجماعة — فكان لها حفلتان بقبّة الغورى وجمعية الشبان المسلمين . وتكلمت فى الحفلين وأنشدت من منظومة اللمعات التى نظمتها وأهديتها الى اقبال . وأنشدت قصيدة ترجمتها من ديوانه «بانگ درا» . وكان مما قلت فى أحد خطابىّ فى تأبين الشاعر العظيم :

« فى اليوم الحادى والعشرين من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٨ ، والساعة خمس من الصباح ، فى مدينة لاهور ، مات رجل كان على هذه الأرض عالمًا روحيا يحاول أن ينشىء الناس نشأة أخرى ، ويسنّ لهم فى الحياة سنة جديدة .

وسكن فكر جوّال جمع ماشاءت له سعته من معارف الشرق والغرب . ثم نقدها غير مستأسر لما يُؤثَر من مذاهب الفلاسفة ، ولا مستكين لما يروَى من أقوال العظماء .

ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الاسلامية من كل ما وعى التاريخُ من مآثر الأبطال وأعمال العظماء .

وقرّت نفس حرّة لا يَحدّها زمان ولا مكان ، ولا يأسرها ماض

ولا حاضر . فهى طليقة بين الازل والأبد ، خفـاقة فى ملكوت الله الذى لا يُحدّ .

مات محمد اقبال الفيلسوف الشاعر الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر أجمعين ، الرجل الذى يُخيل الىّ وأنا فى نشـوة شعره أنه أعظم من أن يموت وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجثمانى .

فاضت روح الرجل الكبير المحبوب فى داره بلاهور ورأسه فى حِجر خادمه القديم على بخش ، وهو يقول : انى لا أرهب الموت ، أنا مسلم ، أستقبل المنية راضيا مسرورا .

قرأت كلام اقبال فى الحياة والموت ، ورأيت استهانته بالحِمام واستهزاءه بالذين يَرهبونه . ماكان هذا خَدعَة الخَيال ولا زُخرف الشعر . فقـد صدّق اقبال دعوتَه فى نفسه حين لقى الموت باسما راضيا .

جدّ المرض بأقبـال وكان يقترب الى الموت وهو متقـد الفكر قوى القلب ، يصوغ عقله كلمات يوقظ بها النفوس النائمة ، وينثر قلبه شررا يُشعل به القلوب الخامدة . وكان فى شغل بنظم ديوانه الآخِر « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وكان قلب الشاعر يهفو الى الحجاز . وكم تمنى أن يموت فيه . وقد ضمّن هذه الأمنية دعاءه فى خاتمة كتابه رموز بى خودى .

ومما قال فى أشهره الأخيرة :

آية المؤمن أن يلقى الردى	باسم الثغر سروراً ورضى

وقد أنشد هذين البيتين ــ وهما مما أنشــأ أخيرا ــ قبل الموت بعشر دقائق :

سرود رفتـه باز آيد كه نايد	نسيمى أز حجاز آيد كه نايد
سرآمد روزگار اين فقيرى	دگر داناى راز آيد كه نايد

وترجمتهـــا

نغمــات مضين لى هل تعود	أنسيم من الحجــاز يعــود ؟
آذنت عيشتى بوشك رحيل	ألِعلم الأسرار قلبٌ جديد؟»

١- وقد زرت من بعدُ قبره وداره . ولقيت ولده جاويد وخادمه علي بخش وسيقرأ القارىء هذا في الفصول الآتية .

— ٦ —

ولما سافرت الى مدينة دهلي عام ١٩٤٧ م ، عزمت على السفر الى لاهور ، على بعد الشقة وظهور الفِتَن والقلق في أرجاء الهند . وما كان مثلي ، وقد قدم الهند ، ليصبر عن زيارة ضريح اقبال وداره . فأعددت للسفر الى لاهور ، ونظمت أربعة أبيات ، وسألت نقّاشا في دهلي القديمة أن ينقشها على لوح من الرخام ، وحملتها معي وسلّمتها الى القوّام على ضريح اقبال لتوضع هناك . والأبيات :

عربيٌ يُهدي لروضك زَهرا — ذا فخار بروضه واعتزاز
كلمات تضمنت كل معنى — من ديار الاسلام في ايجاز
بلسان القرآن خطّت ففيها — نفحات التنزيل والأعجاز
فأقبلنها ، على ضآلة قدري — فهي في الحق «أرمغان الحجاز»

« وأرمغان الحجاز » في البيت الأخير معناها هدية الحجاز . وهو اسم آخر منظومة نظمها اقبال . وقد نشرت بعد وفاته

وكان من عجائب الاتفاق أن بلغت لاهور قبل ذكرى وفاة اقبال بيومين . ولم أكن أعرف موعد هذه الذكرى . وكانت حفلة لي ولوفد من ايران رئيسه الصديق علي أصغر حكمت ، عند ضريح اقبال . وكانت حجرة الضريح لم تكمل بناء .

وقد ألقيت كلمة في هذا الاحتفال جاء فيها :

اقبال !

يا شاعر الاسلام ! أنرتَ مقاصده ، وجلوتَ فضائله وأضأت سراجه ،

وأوضحت منهاجه ، ودعوت المسلمين الى المجد الذى يكافىء دعوتهم ويلائم سنتهم ، ويناسب تاريخهم .

اقبال !

ياشاعر الشرق ! أشدت بمآثره ، وفخرت بروحانيته ، وأخذت على الغرب المادية الصماء ، والغرور والكبرياء ، وتقدت قادته ، وزيّفت سادته، دحضت باطلهم وأبطلت سحرهم ، ووقفتهم للحساب العدل ، وأبنت مالهم وما عليهم وما أحسنوا وما أساءوا .

اقبال !

يا شاعر الحياة ! عرفت معناها وكشفت عن قتْواها ، وبصّرت بمجراها ومنتهاها ، وأوضحت منارها وصُواها .

اقبال !

يا شاعر النفس ! أثرت خفاياها ، وأظهرت خباياها ، وأبنت ما فى « خودى » من كهرباء ، فيها القوة والنار والضياء ، ودعوت الى اثارة معادنها ، واستخراج دفائنها . وقلت :

بركش أين نغمه كه سرمايه آب وگل نست
أى زخود رفته تهى شو ز نواى ديگران [1]

اقبال !

يا شاعر بيخودى ! أوضحت كيف يكون الايثار ، وكيف ينظم الفرد فى الجماعة .

اقبال !

يا شاعر الحرية ! أشدت بذكرها ، وأكبرت من قدرها ، ودعوت اليها كاملة ، وأردتها شاملة ، وأبغضت العبودية فى شتّى مظاهرها ، ومختلف صورها .

---

(١) انظر ترجمتها صفحة ٧

اقبــال !

يا شاعر الجهاد والدأب ، والكدح والنصب . قلت ان الحياة جهــاد مستمر ، وكفاح لا يستقر ، وان الحيــاة فى الموج الهــائل ، والموت فى سكون الساحل .

اقبــال !

يا شاعر التجديد والتقــدم ! قلت ان الحيــاة مجددة تكره التكرار ، ومتقــدمة تأبى التقهقر . ودعوت الانسان أن يمضى قدما فى الحيــاة مقــدما ، له كل حين فكرة ، وفى كل ســاعة نغمة . وبينت أن الاقدام والابتكار ، هما فرق ما بين العبيد والأحرار .

اقبــال !

يا شاعر الجمال !

صورته فى الأرض والسماء ، واليبس والماء ، وفى الصحارى الجرداء ، والحدائق الغناء ، وفى الصبح والمساء ، والضياء والظلماء ، . وصورته فى كل خلق كريم ، ومنهج قويم .

اقبــال !

ياشاعر الجلال ! جلوته فى الخالق والخليقة ، وفى الهمم العالية ، والعزائم الماضية ، والأمانى الكبيرة والمقاصد الجليلة .

اقبــال !

أيها الشــاعر الملهم ! بانت لك الأسرار ، ورفعت عن الغيوب لك الأستار . فرأيت الباطن كالظاهر ، وأدركت المستقبل كالحاضر .

اقبــال !

يا شاعر الاسلام ويا شاعر الشرق ويا شاعر الحياة ويا شاعر الانسانية ويا شاعر الحرية والجهاد والتقدم والاقدام ويا شاعر الجمال والجلال ! .

لقد حييتك على بعد الديار وشطط المزار ، وأشدت بذكرك وعرفت بقدرك وأهديت اليك اللمعــات ، جــوابا لمنظومتيك « أسرار خودى

ورموزبى خودى »

وأنا اليوم أحييك على القرب . وسيّان فى عَظمتك القريب والبعيد. ان هذا الضياء لا يقيس المسافات ، ولا تبعد عليه الغايات

ان هذا الفكر الذى يطوى الآفاق ، ويخترق السبع الطباق ، لا تختلف عنده الأرجاء ، فالدانى والنائى لديه سواء .

كان من مُناى أن أزورك فى حياتك ، ثم تمنيت أن أزور ضريحك بعد مماتك . وهأنذا أشرف بأن ألقِى أمامك هذه الكلمات وأودع ضريحك هذه الزهرات :

عربى يهدى لروضك زهرا ذا فخار بروضه واعتزاز

(الأبيات المثبتة صفحة ١٠)

لقد ضمنت لك آثارك الخلود فى هذه الدنيـا ، وعند الله جزاؤك فى الأخرى ، جزاء المجاهدين المخلصين

« والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا . وان الله لمع المحسنين »

* * *

ثم ذهبت أنا والصديق على أصغر حكمت الى دار اقبال التى سكنها آخر عمره ومات فيها ، وهى دار صغيرة المبنى كبيرة المعنى ، تأخذها العين فى نظرة ، ويسافر فيها الفكر الى غير نهاية .

وقابلنا هناك جاويد ، وهو ابن الشـاعر . ذكره فى كثير من شعره ، وأعرب عن أمله فيه ، ورجائه فى مخايله ، وسَمَّى باسمه المنظومة الرائعة « جاويد نامه » . وجاويد معناه الخالد .

ورأينا حجرة كان الشاعر الخالد يكتب فيها شعره ومقالاته ، وفيهـا فاضت روحـه . وهى حجرة يستطيع شـاعر بليغ أن يفصّلها أبيـاتا خالدات ، وقصائد سائرات .

لبثنا حينا فى الدار ذات الذِكَر والعِبَر نحدث جاويد • وأهدى الينا صورة والده • وانها لذكرى عظيمة : صورة اقبال يهديها ابن اقبال فى دار اقبال •

— ٧ —

وكان علمي بأقبال يزداد على مر الزمان ، فيزداد شغفى به ، واكبارى اياه ، واعانى بمذهبه فى هذه الحياة • فترجمتُ من شعره • وهممت بأن أترجم ديوانا من دواوينه • فلم يتسع وقتى ، ولا تسنّى مطلبى •

ولما بعثت الى باكستان سفيرا لمصر هاج نفسي القرب ؛ ولقيت بين الحين والحين من يتحدث عن اقبال ومن رآه • فزحزحتُ الشواغل عن ساعات من الوقت شغلت فيها بأقبال • فترجمت ديوانين من دواوينه • ترجمت رسالة المشرق وطبعتها فى كراچي حين الذكرى الثالثة عشرة لوفاة الشاعر • ثم ترجمت ضرب الكليم ونشرته فى القاهرة حين الذكرى الرابعة عشرة • وأترجم اليوم والله المستعان ديوانين : أسرار خودى ورموز بى خودى • وقد قاربت الفراغ منهما والحمد لله • وكم شاركت فى الاحتفال بأقبال فقلت وسمعت • وكم جالست أحياء اقبال ومنهم من عاشره ووعى عنه عن كثب ، وعرف معيشته فى داره ، ومجالسه بين أصحابه وسماره •

ولا تزال مجالس أصدقاء اقبال تجتمع عندى كل أسبوع مرة أو مرتين فنقرأ شعره ونروى أخباره ، ونستمع الى حديث العارفين بفلسفته . المتوفرين على استكناه حقائقها واستجلاء أسرارها •

وكثيرا ما سمعت من هؤلاء الاصدقاء الذين سميتهم دراويش اقبال . أن هذه المجالس أحب شيء اليهم فى هذه الدنيا • وأنها عندى لكذلك •

هذه كلمة أردت أن أعرّف بها القراء اقبالا كما عرفته ليقبلوا على قراءة تاريخه وفلسفته وشعره فى الفصول الآتية •

الباب الأول

سيرة اقبال

الفصل الأول

أسرته

يرجع نسب أسرة محمد اقبال الى براهمة كشمير . أسلم أحد أجداده قبل ثلاثة قرون فى عهد الدولة المغولية ، كبرى الدول الاسلامية التى قامت فى الهند . أسلم هذا الجد على يد الشيخ شاه همدانى أحد أئمة المسلمين فى ذلك العصر .

وهاجر محمد رفيق جد محمد اقبال من قرية لوهَر فى كشمير الى مدينة سيالكوت من ولاية بنجاب . وكثير من أهل كشمير يهاجرون الى سيالكوت طلبا للرزق . اذ كانت أقرب المدن الى بلادهم ، ومنها ينتشرون فى أرجاء الهند . فكثير من أهل سيالكوت يرجعون الى أصول كشميرية .

حلَّ محمد رفيق فى سيالكوت ومعه أخوة ثلاثة أحدهم الشيخ محمد رمضان وكان صوفياً ألف كتبا كثيرة باللغة الفارسية .

وسعى محمد رفيق فى طلب الرزق يُعينه ابنهُ محمد نور أبو محمد اقبال

وقد ذكر اقبال فى مواضع من شعره انه من سلالة البراهمة ، لا يفخر بهذا الأصل بل يفخرُ بأنَّ رجلا من سلالة البراهمة أدرك من حقائق الاسلام وأسراره ما أدرك .

يقول فى ضرب كليم يخاطب « سيّداً مصابا بالفلسفة » :

واننى فى الأصل سُومَنَاتى　　　الى منــاة نســبى واللات
وأنت مــن أولاد هاشــمى　　　وطينتى من نســل برهَمىّ

ويقول فى أبيات أخرى عنوانها : الى أمراء العرب :

هل يُسعِد الكافرَ الهندىَّ منطقُه
مخاطبـــاً أمــراء العـــرب فى أدب

ويقول فى بيام مشرق :

انظر الىّ فما ترى فى الهند غيرى رجلا من سلالة البراهمة عارفا بأسرار الروم وتبريز [1]

وفى شعر آخر :

قد قامر الأمراء بالدين والقلب فى حَلْبة السياسة ، فما ترى غير ابن البرهمن مَحْرَماً للأسرار [2]

ويقول فى بال جبريل فى قصيدة مسجد قرطبة :

أنا كافر هندى فانظر الى شوقى وذوقى ، ملء قلبى الصلاة والسلام وعلى شفتىّ الصلاة والسلام [3]

ويقول فى هجرة أسرته من كشمير :

لقد هجر الدرُّ أرضَ اليمن　　　ونافجةُ المسك أرضَ الختَن
وبُلبل كشمير فى الهنــد ثاو　　　بَعيداً من الروض خارَ الوطن [4]

---

(١) مرا بنگر كه درهندوستان ديگر نمى بينى ـ برهمن زاده اى رمز آشناى روم وتبريز ويشير بالروم الى جلال الدين الرومى الصوفى الشاعر المعروف ، ويقصد بتبريز شمس الدين التبريزى الصوفى مرشد جلال الدين .

(٢) ميرومرزا در سياست دل ودين باخته اند
جز برهمن پسرى محرم اسرار كجاست ؟

(٣) كافر هندى هوں ميں ديكه مرا ذوق وشوق
دل ميں صلوة ودرود ، لب په صلوة ودرود

(٤) موتى عدن سى لعل هى يمن سى دور　　　يا نافهء غزال هوا هى ختن سى دور
هندوستاں ميں آئى هى كشمير چهوڑكر　　　بلبل نى آشيانه بنايا چمن سى دور



والد محمد اقبال وعلى حجره حفيدان له هما : « آفتاب » ابن اقبال
(على يمينه) و « اعجاز » ابن اخي اقبال (على يساره)

والدا اقبال

كان والداه صالحين تقيين . فأما أبوه فكان متصوفا عاملا كادحا فى كسب رزقه يعمل لدينه ودنياه .

ويؤثر عنه أنه قال لاقبال ، حين رآه يكثر قراءة القرآن : ان أردت أن تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك .

وهذه قصة نظمها اقبال فى كتاب رموزِ بيخودى :

« سائل كالقضاء المبرم . طرق بابنا طرقا متواليا . فثرتُ غضبا وضربته بعصا على رأسه . فتبعثر ما جمعه بسؤاله . والعقل أيام الشباب لا يفرق بين ضلال وصواب ــ ورآنى والدى فاغتمّ وآربدّ وجهه وتأوه . وسال الدمع من عينيه . واضطربت روحى الغافلة وطار لبّى .

قال أبى :

تجتمع غدا أمة خير البشر ، تجتمع أمام مولاها ، ويحشر غزاة الملة البيضاء وحكماؤها والشهداء ، وهم حجة الدين وأنجم هذه الأمة،والزهاد والوالهون والعلماء والعصاة .

ويأتى هذا السائل المسكين صائحا فى هذا المحشر شاكيا .

فماذا أقول اذا قال لى النبى :

ان الله أودعك شاباً مسلماً فلم تؤدبه بأدبى . بل لم تستطع أن تجعله انسانا .

فتمثل عتاب النبى الكريم ومقامى فى خجلى بين الخوف والرجاء .

تفكر قليلا يا بنى . اذكر اجتماع أمة خير البشر .

انظر يا بنى الى شيبى ، واضطرابى وقلقى . ولا تقسُ على أبيك ولا تفضحه أمام مولاه . انك كِمٌ فى غصن المصطفى . فكن وردة من نسيم ربيعه . خذ من ربيعه نصيبا من الريح واللون . لا بد لك أن تظفر من خُلُقه بنصيب . »

وأم اقبال كانت تقية ورعة حتى كانت تتحرج أن تأكل من وظيفة زوجها اذ كان يعمل مع رئيس عُرِفَ بأكل الرشوة . ولم تكن وظيفة زوجها من مال هذا الرئيس ، ولكن كذلك كان ورعها .

ولاقبال فى أمه قصيدة طويلة من ديوانه (بانگ درا) يقول فيها :

« ساميتُ النجم بتربيتك ، وكان فخر الأباء والأجداد بيتك

كانت حياتك صفحة مُذَهَّبَةً فى كتاب الكون ؛ كانت قدوة فى الدين والدنيا » .[1]

عُمِّرَ محمد نور والد اقبال زهاء مائة سنة ، وكُفَّ بصره فى سن الثمانين . وتوفى ١٧ آب سنة ١٩٣٠ . وتوفيت والدة اقبال فى ١٤ تشرين الثانى سنة ١٩١٤ وسنها ثمان وسبعون سنة[2] .

مولد اقبال

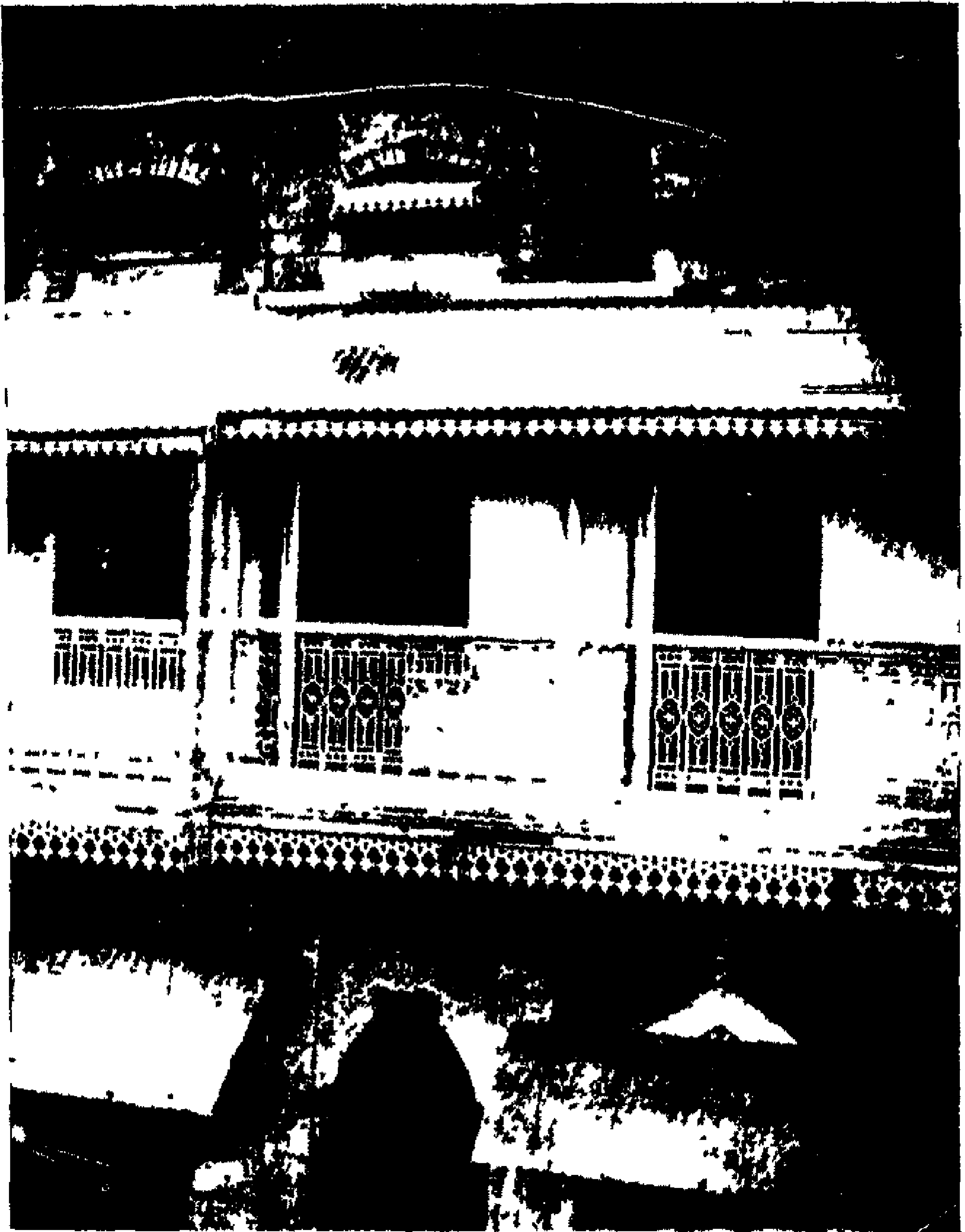
فى هذا البيت الطاهر ولد وليد سمته أمه محمد اقبال . ويروى أن والده رأى قبل مولده حمامة بيضاء ناصعة تطير فتقع فى حِجره وتسكن اليه . وعُبِّرَت الرؤيا أنه سيُرزَق ابناً عظيم الجَدّ والاقبال يعلو على الناس .

وولد محمد اقبال فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ هـ (٢٢ شباط سنة ١٨٧٣ م) . ولم يأبه أحد بمولد هذا الطفل الا كما تأبه أسرة فقيرة بمولد ابن فيها :

---

(١) تربيت سے تیری میں انجم کا ہم قسمت ہوا
گھر مرے اجداد کا سرمایۂ عزت ہوا
دفتر ہستی میں تھی زریں ورق تیری حیات
تھی سراپا دین و دنیا کا سبق تیری حیات

(٢) كتب الى تاريخ وفاة الوالدين و سنهما حفيدهما اعجاز احمد



الدار التي ولد فيها محمد اقبال في سيالكوت

ولكن الله تعالى كان يعلم يوم مولد اقبال أن قد وُلِد فى هذا البيت الصغير من مدينة سيالكوت رجل يعلو فكرُه وقلبُه على حدود الأوطان والأزمان . أن قد ولد فيلسوف نابغ وشاعر مُبدع من الذين يَهَبهم الله البشر فى العصر بعد العصر ليخلقوا ويُجدِّدوا ويَهدُوا على هـذه الأرض .

أن لهذا الطفل الوليد لأثرا باقيا فى تاريخ أمته وتاريخ المسلمين وتاريخ البشر أجمعين .

الفصل الثانى

فى سيالـكوت

من الميلاد الى سن اثنتين وعشرين

بدأ اقبال التعليم فى طفولته على أبيه ، ثم أدخِل مكتباً ليتعلم القرآن. ولا ندرى كم حفظ اقبال من كتاب الله فى طفولته . ولا ريب أنه حفظ كثيرا منه فى هذه السن وبعدها ، اذ كان فى كِبَره يُعلِّم القرآن. وكثرةُ اقتباسه من القرآن فى شعره تدل على أن القرآن كان على قلبه ولسانه . ثم أدخِل الصبىُّ مدرسة البعثة الاسكوتية [1] فى سيالكوت . ويقـال ان أباه أدخله هذه المدرسة ليكون فى رعاية صديقه مير حسن . وكان أستاذا أديبا متضلعاً فى الأدب الفارسى عارفا بالعربية .

وقد امتاز اقبال بذكائه وجده ففاق أترابه ونال جوائز كثيرة .

ومن نوادره أنه وهو فى سن العاشرة ؛ جاء الى المدرسة متأخراً فسئل عن تأخره فقال : الاقبال يأتى متأخرا . [2]

وحينما كان فى السنة الرابعة ــ فى نظام التعليم فى هذه المدرسـة . وليست بعيدة من الرابعة فى التعليم الابتدائى عندنا ــ أخذه والده الى

(1) Soottish Mission School

(2) اقبال بودير هى ميں آتا هى

صديقه مير حسن وقال أريد أن تعلّمه الدين بدل ما يتعلمه فى المدرسة • فأجاب الأستاذ مبتسما : هذا الصبى ليس لتعليم المساجد • وسيبقى فى المدرسة •

ولبث اقبال منـــذ ذلك الحين الى أن أتم الدراســـة فى كليـــة البعثة الاسكوتية فى رعاية مير حسن وتأديبه •

ورأى الأستاذ من ذكائه ومخايله ، بل من قوله وفعله ، مازاده اعجابا به وتأميلا فيه • فعنى بتلقينه الدين والعربية والفارسية •

ولما رآه ينظم الشعر وعرف موهبته فيه ، أرشـــده وحرضه ، وحسّن له أن ينظم باللغة الأردية مكان البنجابية •

مير حسن

يقترن ذكر مير حسن بسيرة اقبال ويشاد بأثر هذا الأســـتاذ فى تأديب تلميذه • فيحسن أن نعرّف به بعض التعريف : [1]

هو من المنتسبين الى آل البيت • وكان أستاذ اللغة العربية فى كليـــة سيالكوت ، وكان متضلعا فى الأدب الفارسى • وكان علَما من أعلام البلد. يعرفه الصغير والكبير ، مهيبا مبجّلا • وكان ضعيف البصر يمشى الهُوينى متوكئا على عصا طويلة • ويسير من داره الى الكلية مسافة ميلين فى ساعة وكان لا يتأخّر عن موعده دقيقة •

وقد اقترح عليه عميد الكلية أن يركب عربة على أن تؤدّى له الكلية أجرتها • فقال له أتريد أن أفقد فى العربات ما بقى لى من قوة ؟ • وكان مضرب المثل فى ضبط الوقت والتزام المواقيت • واتفق أن تأخـــر مرة عن اجتماع فى الكلية دقيقتين • فكان هذا حديثا عجيبا بين زملائه • ومن لطائفه أن عميد الكلية قال له حينما جاء متأخرا :

---

١ - من فصل من ملفوظات اقبال كتبه الاستاذ عبد الواحد وكان من تلاميذ الكلية التى كان فيها الاستاذ مير حسن • دخلها سنة ١٩١٧

لقد لبثنا دقيقتين ننتظرك . فأجاب فورا : لا بأس لقد انتظرتك سنين حتى جئتَ الى هذا العالم ـ وكان العميد أصغر منه سناً

وقد بلغ من هيبته أن الأساتذة والطلبة كانوا اذا رأوه قادما خلّوا له الطريق أو افسحوا له . وكان الطلبة الذين يقرءون عليه العربية يجدون منه شدة وتقريعا أول الأمر . فاذا جازوا المرحلة الأولى أفادوا كثيرا من غزارة علمـــه .

ولم يكن الشيخ ، على هذا ، غليظا جافاً بل كان ظريفا فكها فى مواضع الظرف والتفكه .

وقد وفى اقبال لاستاذه فأشاد بذكره فى شعره . ولما عرض على أقبال لقب « سير » كما ترى فيما يأتى ، اشترط لقبوله أن يمنح أســتاذه لقب شمس العلماء فأجيب الى ما اشترط .

نظم الشعر

وكان اقبال فى هذه المرحلة من عمره ينظم الشـــعر ، ويزداد على مر الايام احسانا فيه. وكان يرسل بين الحين والحين شعره الى الشاعر داغ أحد شعراء الاردية النابهين . ونظر الشاعر الكبير فى قصائد الشاعر الشـادى ثم كتب اليه أن لا ترسل الىّ شعرك فما يحتاج الى تنقيح .

وعاش داغ حتى ذاع صيت اقبال وبلغ فى الشعر ما بلغ . فكان يفخر بانه نقح شعر اقبال فى صباه .

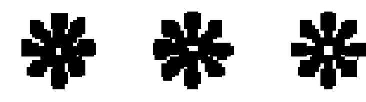
وفرغ اقبال من الدرس فى الكلية الاسـكوتية سنة ١٨٩٥ ، وسنته زهاء اثنتين وعشرين سنة .

الفصل الثالث

فى لاهور الى سنة ١٩٠٥

انتقل الشاب الذكى الطلّعة الشاعر الذى فاق أترابه فى المدارس ، انتقل الى لاهور حاضرة ولاية بنجاب واحدى مدن الهند الكبرى . وهى أول مدينة فى الهند اتخذتها دولة أسلامية دار ملك . صارت عاصمة الدولة الغزنوية حينما غلبت على افغانستان فلم يبق لها الا ما فتحته من أرض الهند . وبقيت هذه المدينة الكبيرة فى مقدمة مدن الهند حضارة وعلما وفنا .

وكانت حين قصد اليها اقبال قبل نصف قرن ، مباءة علم وأدب ؛ تعمل مجامعها فى نشر الأدب الأردى واحلاله محل الادب الفارسى . وتألفت فيها مجامع أدبية تدعو بين الحين والحين الى محافل ينشد فيها الشعراء عيون أشعارها . ويسمى هذا مشاعرة، والمشاعرة سنّة شائعة فى باكستان والهند حتى اليوم .



دخل اقبال كلية الحكومة فى هذه المدينة ليتم تعلمه وجد فى الدرس كدأبه . وكان موضع الأعجاب فى ذكائه وعلمه وأدبه .
ومما يؤثر عنه فى ذلك الحين ، وهى أثارة ذات دلالة بليغة . أنه أخذ على أحد علماء الدين كذبا فبلغ من نفسه هذا المنكر . فلبث أياما مكتئبا حتى سأله أستاذه توماس آرنلد فقص عليه القصة، فقال الأستاذ: سترى كثيرا من هذا فى حياتك .

استمر اقبال فى دراسته حتى نال الدرجة التى تسمى فى نظام التعليم الانجليزى .B.A وجلّى فى امتحان العربية والانجليزية ، ونال جوائز التفوق وذلكم سنة ١٨٩٧ م

ثم تابع الدراسة الى درجة M.A. (أستاذ فى الفن) فى الفلسفة حتى أتم دراسته مجليا نائلا جائزة أخرى من الكلية .

وتلمذ اقبال فى هذه الكلية لاستاذ الفلسفة الاسلامية السير توماس آرنلد .

توماس آرنلد

ويحبب الى أن أسجل ذكرا عن هذا الأستاذ الجليل وفاء بحقه على اقبال وعلى المسلمين كافة :

كان أستاذ العربية فى جامعة لندن ثم أستاذ الفلسفة فى جامعة عليكره فكلية الحكومة فى لاهور .

وكان واسع العلم ثبتا متواضعا منصفا نصيرا للمسلمين محبا للحضارة الاسلامية .

وقد ألف كتابه «دعوة الاسلام»[1] ليبين أن الاسلام انتشر بالدعوة لا بالقوة ، ففصل تاريخ انتشار الأسلام ولا سيما فى الجهات التى لم يكن للمسلمين فيها سلطان . وقد أخبرنى أنه تعلم اللغةالهولنديةليقرأ السجلات التى تبين انتشار الأسلام فى جزيرة جاوه وما يتصل بها . وكتابه هذا وحيد فى بابه لم يؤلف مثله مسلم ولا غير مسلم .

ولما ألغى مصطفى كمال الخلافة كتب كتابه « الخلافة » وهو شاهد بسعة علمه ونفاذ فكره .

وقد عرفته فى لندن فى مدرسة اللغات الشرقية فأنست به وأحببته وجرأنى على صحبته لين جانبه ودماثة خلقه .

وكنت أسأله عما يشكل على وأنا أكتب رسالتى فى (التصوف وفريد الدين العطار) .

وقد عرفت فيه التواضع والتثبت فكان يحب أن يقول لا أدرى ان لم يكن على بينة مما يسأل عنه . وكان كثيرا ما يسألنى حين أحدثه فى أمر : أأنت على يقين من هذا ؟

---

(1) Preaching of Islam.

وكان يحب العادات الاسـلامية ويميل الى أزيائنا وسننا . أذكر انى تعشيت معه فى داره فبدأ الطعام قائلا باسم الله ، وودعنى حين الانصراف قائلا : فى أمان الله .

وجاء الى مصر بدعوة من جامعة القاهرة وآثر النزول فى حلوان ، وهى دار اقامتى ، ثم انتقل الى المعـادى . وكنت أقابله بين الحين والحين وكان يزورنى فى ليالى رمضان التماسا لسماع القرآن .

وذهبت اليه مرة فى الفندق الذى نزل به فى حلوان فأخرج من حقيبته عمامة وطربوشا . وقال أرنى كيف تكوّر العمامة . ثم قال : أرنى أوثر العمامة والجبة وأشعر حين ألبسهما أنى فى زىّ أستاذ كما أشعر أنى صبى حين ألبس هذه الملابس ، وأشار الى الملابس الافرنجية التى كان يلبسها .

وأذكر أنّا اجتمعنا على مائدة فى دارنا ومعنا الكبتن كننج الانجليزى . وكان هذا مَعنياً بالبلاد العربية . وقد سعى فى تأييـد الأمير عبد الكريم حينما حارب الأسبان فى الريف ــ فقال لى كننج : قرأتَ التاريخ فأنبئنى أىّ الفريقين كان أكثر سماحة وسجاحة المسـلمون أم النصارى ؟ قلت : يجيب هذا السؤال أستاذنا توماس آرنولد . فقال الأستاذ فورا : لا ريب أن المسلمين كانوا أكثر تسامحا من النصارى .

وقال لى يوما وقد ذكرنا اقبالا : انه تلميذى . قلت هو اذاً شابٌ . قال أتحسبه شابا بأنه كان تلميذى . أنت لا تدرى كم سنىّ .

هـذه ذِكَر لا تعرّف بالسـير توماس آرنولد ، ولكنى أذكـرها اعتزازا بها ، وحبا لذكر هذا الأسـتاذ الكريم أستاذ اقبـال ، ولعل أحد الكاتبين عنه يجد فيها فائدة .

هذا الأستاذ عرف اقبالا وقدر مواهبه فقرّبه وحرّصه على الاستزادة من العلم، وتوكدت بينهما صداقة، صداقةُ التلميذ المتطلع البارّ والأستاذ العالم المخلص .

فلما فارق آرنولد لاهور راجعا الى وطنه نظم تلميذه الوفىّ قصـيدة



على بخش الخادم الامين الذى سهر على خدمة اقبال فى حياته

عنوانها (نواح الفراق) أعرب فيهـا عن حبه أستاذه وأكباره اياه وتحسره لفراقه .

بعد اتمام الدراسة

فرغ اقبال من تحصيل العلم في الكليـة فاختير لتدريس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية في لاهور [1] . ثم نصب لتدريس الفلسفة واللغة الانكليزية بكلية الحكومة التي تخرج فيها .

وقد نال أعجاب تلاميذه وزملائه بسعة علمه وحسن خلقه ، وسداد رأيه ، واتجهت الأبصار اليه ، وذاع ذكره حتى صار من أساتذة لاهور النابهين .

وفي ذلك الحين دخل في خدمته خادمه الوفي علي بخش ، وأستأذن القارىء في التعريج على علي بخش ، خادم اقبـال الأمين الذي صحبه طول حياته وصحب أولاده بعد مماته . وملازمة هذا الرجل اقبالا منذ دخل في خدمته حتى فرق بينهما الموت ، يدل على لين اقبال ويسرمعاملته. روى عن أنس بن مالك رضي الله عنـه قال : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته لم فعلته ولا في شيء تركته لم تركته [2]

وقد حدثني بعض من صحبوا أقبالا أو زاروه أنه كان يجلس في داره فيدخل عليه من يشاء فسأله عما يشاء وعلى بخش قريب منه يلبّي دعوته ويقضي ما يأمره به ويحرص على أن يَمُدّ أرجيلته بالنار كلما خَبَت . وكان الشاعر مولعا بها لا يكاد يفترّ عنها في مجلسه .

واقترن ذكر علي بخش بكثير من سيرة اقبـال . وقد حرصت على أن

---

(1) Oriental College

(2) هذا لفظ الحديث او قريب منه .

آراه فى دار أقبال حينما ذهبت الى لاهور فلقيته وأخذت صورتى معه فى ربيع السنة الماضية . وراسلته بعدُ من كراچى .

فى محافل الادب فى لاهور

لبث الشاعر النابغ فى لاهور عشر سنين ، منذ قدم اليها من سيالكوت الى أن سافر الى أوربا .

أتم دراسته فى كلية الحكومة ثم درّس فى الكلية الاسلامية فالكلية التى تخرج فيها . فعرفت مدارس لاهور ومجامع الأدب فيها شابا وسيما قويا يتقد ذكاء وشوقا الى المعرفة ، ويتطلع الى التزود من العلم الى غير نهاية .

وقد دوّى صوتُ أقبال فى محافل الأدب ينشد قصائده . وحرصت الصحف على نشر شِعره . وأيقن الشعراء والعلماء أن لهذا الشاب شأنا ، ولكن لم يحزروا الشأو البعيد الذى يبلغه الشاعر . اذ كان شأوا لا يدركه الا أقبال وقليل من أمثاله فى تاريخ البشر .

وأول قصائده الرنانة التى ألقيت فى جمع حاشد قصيدته التى أنشدها فى الحفل السنوى لجماعة حماية الاسلام فى لاهور (أنجمن حماية اسلام) سنة ١٨٩٩ وعنوانها أنين يتيم (ناله‌ء يتيمى) وفى السنة التالية أنشد فى حفل هذه الجماعة قصيدة يخاطب فيها يتيم هلال العيد .

ومن القصائد التى نبّهت الناس اليه قصيدة هِمالا التى أنشدها فى أحد المحافل الأدبية . وقد سأله كثير من أصحاب الصحف أن ينشروها فأبى . ثم أذن بنشرها فى صحيفة المخزن سنة ١٩٠١ ثم نشرت قصائده فى صحف أخرى من بَعد

وكذلك أنشأ اقبال فى ذلك الحين قصائد تعرّض فيها للسياسة .

وترجم اقبال فى هذه المرحلة من عمره قصائد من اللغة الانكليزية . ونشر أول كتاب له . وهو كتاب فى الاقتصاد باللغة الأردية .

وفى هذه السنين كان يفكر فى نظم ملحمة على غرار ملتن الشاعر الانكليزى .

كتب الى أحد أصدقائه سنة ١٩٠٣ :

أنا منذ زمن طويل أنزع الى أن أكتب على طريقة ملتن (الفردوس المفقود وغيره) وأحسب أن الوقت قد حان . فما تمضى ساعة هذه الأيام دون تفكير فى هذا الأمر . لبثت أفكر فى هذا طول خمس سنين أو ست ولكن لم أشعر بالنزوع اليه كما أشعر اليوم .

الفصل الرابع

سفره الى اوربا

عزم اقبال على الرحيل الى أوربا للتزود من العلم ، اتباعا لمشورة السير توماس أرنولد ، وسنه يومئذ اثنتان وثلاثون سنة .

وخرج معه بعض أصدقائه لتوديعه حتى دهلى . وبلغ أقبال وصحبه مدينة دهلى صبح الثانى من شهر أيلول سنة ١٩٠٥ . فاستقبلهم فى محطة دهلى جماعة فيهم السيد حسن نظامى الدهلوى من أحفاد نظام الدين أوليا . وبعد أن استراح قليلا فى دار أحد مستقبليه توجه الى مزار الشيخ نظام الدين أوليا ، وهو من أعظم مزارات الهند مكانة وأكثرها قصادا [1] وهو فى أطراف مدينة دهلى .

وفى طريقه مر على مزار السلطان همايون ثانى ملوك الدولة المغولية، وهو أول مزار شيد لملوك هذه الدولية فى الهند . فقد توفى أبوه بابر مؤسس الدولة فى كابل ودفن فيها [2] .

---

(١) انظر سيرة نظام الدين ووصف مزاره فى كتابى « الرحلات الثانية »
(٢) انظر وصف المزار وصاحبه فى الرحلات الثانية

ولما بلغ مزار نظام الدين أنشد قصيدة باللغة الأردية انشادا شاجيا .

يقول فى هذه القصيدة بعد مدح نظام الدين :

« أسير عن الوطن الجميل ، تجذبنى لذة شراب المعرفة . انى شجرة برية ترمق سحاب الجود ، لم يحوجنى الله الى بستانى . ويقول : منيتى أن أكون خادم خلق الله ما حييت ، لا أتمنى عمرا خالدا .

منيتى أن أضع جبينى على أقدام الوالدين، لقد صيرنى الوله محرم أسرار الحب » .

وفى هذه القصيدة نفحات من شعر أقبال ومن فلسفته ، الفلسفة والشعر اللذين شاعا من بعد فملأا الآفاق نورا ونارا .

وخرج من المزار الى دار السيد حسن نظامى فتلبث بها قليلا وسمع انشاد قوال هناك [1] .

ثم رجع الى المدينة دهلى ومر فى طريقه على قبر الشاعر الكبير الذى هو أعظم شعراء المسلمين فى الهند قبل أقبال ، ميرزا أسد الله غالب المتوفى سنة ١٨٦٩ م .

وقد استأذن القوال فى انشاد بيت لغالب. واستمع اقبال مأخوذا بالشعر والذكرى . فلما هم الحاضرون بالانصراف قبل قبر الشاعر العظيم وانصرف . ومثل أقبال يقدر شعر غالب ويخشع لذكراه ويلثم قبره .

اقبال فى اوربا

توجه اقبال الى بمباى فركب سفينة قاصدا انكلترا . والتحق بجامعة كمبردج لدرس الفلسفة ، وتلمذ للأستاذ الدكتور ميكتاكرت . وعكف على المطالعة فى مكتبة الجامعة . ونال من هذه الجامعة درجة فى فلسفة

---

(١) القوال مطرب له طريقة فى الغناء خاصة . أكثر غنائه فى ذكر الله ومدح الرسول

الأخلاق . ثم سافر الى ألمانيا فتعلم الألمانية فى زمن قليل والتحق بجامعة ميونخ . وكتب رسالته « تطور ما وراء الطبيعة فى فارس » [1] وهى أول كتاب فى الفلسفة عرّف الناس بقدرة اقبال على النظر والبحث ، وسعة اطلاعه فى الفلسفة . وقد أهدى الكتاب الى أستاذه توماس آرنلد . ونشره فى لندن .

عاد اقبال الى لندن فدرس القانون وجاز امتحان المحاماة والتحق كذلك بمدرسة العلوم السياسية زمنا .

وكان الأستاذ آرنلد حينئذ أستاذ العربية فى جامعة لندن واضطر الى الانقطاع عن عمله ثلاثة أشهر فاختار اقبالا ليخلفه فى عمله

ولم يأل محمد اقبال . وهو فى أوربا ، فى لقاء العلماء والتحدث اليهم ومداولة الرأى معهم فى قضايا من العلم والفلسفة . وكان كدأبهطول عمره مولعا بالقراءة والاستزادة من المعرفة جهد الطاقة .

حدثنى الشيخ سيد طلحة ، وكان أستاذا فى جامعة بنجاب ، قال حدثنى خازن مكتبة الجامعة أنه لم ير أحدا كأقبال حرصا على مطالعة الكتب والنظر فيها والاستزاده منها .

وكان اقبال فى أوربا ذلك الحين كثير التحدث عن الاسلام وثقافته وحضارته والقىمحاضرات فى الاسلام نشرتها الصحف الكبيرة . وقد دلت آراؤه وشعره من بَعد ، أنه لم يتعجَب بحضارة أوربا ، ولم يَخِل عليه تموبهها ولا أبرق عينه لألاؤها . ومما أنشأ قبل عودته الى الهند قوله :

يا ساكنى ديار الغرب . ليست أرض الله حانوتا . أن الذى توهمتموه ذهبا خالصا سترونه زائفا . وأن حضارتكم ستبخَع نفسها بخنجرها . أن

---

(1) Development of Metaphysics in Persia

العشُّ الذى يُبنى على غصن دقيق لا يثبت [1]

وكان بعد أن علم ما علم ورأى ما رأى فى الهند وأوربا يتنازعه طريقتان فى الحياة ، طريقة العمل وطريقة الفكر . وبداله حينا أن يهجر الشعر ويغامر فيما يغامر الناس فيه ولكن صديقه السير عبدالقادر وأستاذه آرنلد حسَّنا له أن يدوم على نظم الشعر .

وما كان أعظمها خسارة للأدب الاسلامى وأدب العالم كله وللانسانية جميعها لو هجر اقبال الشعر فلم يخرج للناس دواوينه التسعة .

الفصل الخامس

اقبال فى وطنه

لبث اقبال فى أوربا زهاء ثلاث سنين . ثم رجع الى وطنه سنة ١٩٠٨ م

ولما مرّ بدهلى استقبله أصدقاؤه وعارفوه كما ودعوه قبل ثلاث سنين . وذهب الى مزار نظام الدين أوليا كما ذهب اليه حين سفره الى أوربا .

وليت شعرى أعَنى اقبال بهذه الزيارة أن يتبيّن أنه على العهد لم يغيره السفر الى أوربا ، ولم يرُعه ما رأى فيها وما سمع ، ولم تفتنه فتنتها ولا سحرته حضارتها . والحق أنه نظر واعتبر ، وملك عقله وقلبه .

بلغ اقبال لاهور فى السابع والعشرين من حزيران سنة ١٩٠٨ واحتفل كثير من أهل لاهور بعودته بعد غيبة ثلاث سنين ، وتعددت المجامع

---

(١) دیار مغرب کی رهنی والوخدا کی بستی دوکان نهین هی
کهرا جسی تم سمجهه رهی هو وه اب زرکم عیار هوگا
تمهاری تهذیب أپنی خنجرسی آپ هی خود کشی کریگی
جو شاخ نازك په آشیانه بنیگا ناپایدارهوگا

للترحيب بعود الرجل النابغ الذى افتقـده أصحابه والمعجبون به زمنـا طويلا . وأنشدت فى هذه المجامع قصائد جاء فى واحدة منها بيت معناه :

« طال حنيننا الى شعرك يا من طبّق الآفاق صيته فى الشعر »

وفى هذا دلالة على أن الناس كانوا ألفوا أن يقرءوا شعر اقبال فى الفينة بعد الفينة . فافتقدوه فى هذه الفترة ، وعلى أن اقبالا كان له صـيت فى الشعر قبل سفره الى أوربا .

فى المحاماة

نال اقبال اجازة المحاماة فى لندن ، وهو اليوم فى لاهور يمتهن المحاماة وكان لاقبال من ذكائه وعلمه وبيانه ما يؤهله لأن يبلغ فى المحـاماة أعلى الدرجات ، ولكن الرجـل خُلق لغيرها ، ورُشّح لما هو أجلّ وأعلى . وانما أراد بها كسبَ الكفاف ليفرغ للرسالة التى حمّلها فى هذه الحياة ؛ الرسالة التى تنطق بها فلسفته وسيرته وشعره ونثره .

وحُدّثت أنه كان يسـأل وكيله كم عندك ؟ . فأن عرف أن عنـده مايُنفق منه الى آخر الشهر لم يرغب فى قبول قضايا حتى الشهر التالى

وأنه كان لا يقبل وكالة فى قضية حتى يعلم أن وكيله محقّ فى القضـية التى يوكله فيها . وأنه يستطيع أن يأخذ له حقه .

وقد دام على المحاماة حتى سنة ١٩٣٤ م قبـل وفاته بأربع سنوات اذ اضطرّه المرض الى تركها .

وسئل مرة ألم يُنسه عمله الكثير يوما قضية من قضاياه . فقـال : كنت فى مكتبة المحكمة فجاءنى أحـد موكِلِىّ يخبرنى أن قضـيته أمام القاضى . قلت ان لقضيتك يوما آخر . ولكنه ألح علىّ أن أذهب معـه الى قاعة القضاء . فقلت للقاضى أن لقضية الرجـل موعدا آخر . فنظر القاضى فى الأوراق فتبين أن القضية قدّمت اليه خطأ قبل موعدها

وفى هذه القصة دلالة على أن الشاعر الفيلسوف السياسى لم يشغله الشعر والفلسفة والسياسة عن قضاياه ومواعيده .

فى التعليم

رجع اقبال الى التدريس فى كلية الحكومة التى تخرج فيها ، والتى درّس بها من قبل ، فعلّم الفلسفة والأدب العربى والأدب الانكليزى . وكان راتبه منها خمسمائة روبية .

ثم استقال من الكلية بعد أن عمل بها نحو سنة ونصف . واكتفى بالمحاماة .

وحدّث خادمه الوفىّ ، على بخش ، قال :

سألته حين استقال من الكلية لماذا استقلت ؟. فأجاب : يا على بخش ان خدمة الانكليز عسيرة ، وأعسر ما فيها ، أنى لا أستطيع أن أحدّث الناس بما فى نفسى مادمت فى خدمتهم . وأنا اليوم حرّ ، ماشئتُ قلتُ وماشئتُ فعلتُ .

استقالة اقبال من الكلية لم تقطع صلته بالجامعة . فكان يعمل فى مجالسها ولجانها . وقد لبث سنين عميدا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسا لقسم الدراسات الفلسفية .

ويظهر أن النظام الانجليزى فى الجامعات يجيز أن يتولى أستاذ مثل هذه الأعمال دون أن يكون موظفا فى الجامعة .

وكان ذا صلة دائمة بالكلية الاسلامية فى لاهور . وكذلك كان كثير الاهتمام بالجامعة الملية فى دهلى ، دائم الاتصال بها .

وفى مؤتمر المائدة المستديرة عمل فى لجان نظرت فى اصلاح التعليم فى الهند .

وفى سنة ١٩٣٣ دعى هو والشيخ سليمان الندوى والسير راس مسعود

الى كابل للنظر فى التعليم عامة ، وفى نظام جامعة كابل خاصة . وعملت حكومة الأفغان بأكثر ما أوصى به

وأعظم ما أمد به أقبال التعليم والتربية ، فلسفته فى الذاتية . وقد طبقها على التربية والتعليم والفنون فى كثير من شعره .

وقد كتب فى هذا أحد المعلمين النابهين الأستاذ سيدين كتابا اسمه فلسفة اقبال التعليمية [1]

محاضرات فى ارجاء الهند

كان العلامة اقبال [2] دائم الاتصال بمعاهد العلم فى لاهور وغيرها ، وكانت الجامعات تدعوه الى زيارتها والمحاضرة فيها .

دعى الى مدراس سنة ١٩٢٨ فألقى محاضرات هناك ، وبدأ محاضراته الست التى أكملها من بعد فى اله آبادوعليگره ، والتى جمعت فسمّيت « أصلاح الأفكار الدينية فى الاسلام [3] . » وهى أعظم ما كتب أقبال فى الفلسفة .

ثم ذهب الى بنگلور فى أمارة مَيسور أوائل سنة ١٩٢٩ م . فلقى حفاوة بالغة ، ودعاه المهاراجا الى مدينة ميسور فذهب اليها وحاضر فى جامعتها ، واحتفل الناس به كثيرا . وقال أحد أساتذة الهنادك فى احدى الحفلات :

يقول المسلمون ان الدكتور أقبالا لهم . والحق أنه لنا جميعا لا يختص جماعة أو دينا . فأن افتخر المسلمون بأنه أخوهم فى الدين فنحن نفتخر بأن أقبالا هندى .

وفى هذه السفرة زار أقبال قبر السلطان حيدر على وقبر ابنه السلطان

(١) Iqbal's Educational Philosophy.

(٢) يطلق على السنة الخاصة والعامة ذكر اقبال مع لقب العلامة .

(٣) Reconstruction of Religious Thoughts in Islam.

تيبو ، وأصغى فى خشوع الى قصيدة أنشدها شاعر على قبر«تيبوسلطان» واقبال من المعجبين بهذا الملك . وقد ذكره فى كثير من شعره ، شأنه فى الاعجاب بالأحرار الشجعان المجاهدين الذين يلقون الموت فى سبيل الحق صابرين راضين محتسبين . والسلطان تيبو — ويسمى فى الهند تيبو سلطان — جاهد الانكليز جهاداً كبيراً ولم يقعده عن جهادهم الا الموت .

وقد اجتهد فى أن يستعين على الانكليز بعض الدول الاسلامية كما حاول أن يحالف نابليون عليهم . وكان نابليون حينئذ فى مصر . وقد جمع له الانكليز ما استطاعوا وحاصروه . فلما يئس من النصر أنف من ذل الأسر فألقى بنفسه من قلعة فمات سنة ١٢١٣ هـ .

ثم توجه اقبال تلقاء حيدر آباد فبلغها فى الرابع عشر من كانون الثانى وازدحم الناس لاستقباله . واصطف الصبيان ينشدون نشيد اقبال القومى . ودعاه نظام حيدر آباد فنزل فى ضيافته أياما

فى الجامعة الاسلامية

ودعا الدكتور الأنصارى رحمه الله سنة ١٩٣٢ م حسين رءوف بك الى القدوم الى الهند والقاء محاضرات فى الجامعة الاسلامية . وحسين رءوف عُرف فى العالم الاسلامى منذ حرب تركيا وايطاليا سنة ١٩١١ ، أذ كان ربّان المدرعة حميدية فغامر بها فى البحر الأبيض وأغرق كثيرا من سفن الطليان .

وقد شارك فى أحداث تركيا حربا وسلما حتى تولى رياسة الوزارة أيام حرب الاستقلال .

جاء حسين رءوف الى دهلى فألقى محاضرات فى الجامعة على جمع حاشد .

وقد رأس احدى الحفلات محمد اقبال فتكلم بعد حسين رءوف فى اتحاد المسلمين ، وأبطل دعوة الوطنية بينهم وأبان عن مفاسدها .

ثم رأس اجتماعا آخر . ورجا الناس أن يسمعوا منه مثل ما سمعوا فى اليوم الأول ، ولكنه اكتفى بكلام قليل ختمه بهذه الفكاهة : ذهب الى ابليس جماعة من تلاميذه أيام الحرب العظمى (الحرب العالميـة الأولى) فوجدوه خاليا ساكنا يدخن سيجارا . فسألوه كيف جلس خاليا فارغا من العمل . فأجاب : وكلت كل أعمالى الى الحكومة البريطانية هذه الأيام .

وبعد أشهر عاد اقبال الى الجامعة الاسـلامية فى دهلى فألقى محاضرة موضوعها السّفر من لندن الى قرطبة . وحدثنى الأستاذ أحمد پرويز أنه سمع هذه المحاضرة فرأى كيف اجتمع عقل اقبال وقلبه وعلمه وأدبه على الاعجاب بآثار العرب فى الأندلس ، والاشادة بها . وحدث فى هـذه المحاضرة عن لقائه الفيلسوف برجسون فى باريس وتحدثه معه فى الفلسفة وفى أمور من الاسلام كان يجهلها الفيلسوف .

وفى هذا الصدد أذكر ماروى عن اقبال أنه حدث برجسون فى الزمان — ولهذا الفيلسوف نظرية فيه توافق فلسفة اقبال من بعض الوجوه — وأن برجسون وثب من كرسيّه عجباً حينما ذكر أقبـال الأثر المعروف : « لا تسبّوا الدهر فأن الله هو الدهر » . وهذا الأثر مضمّن فى شعر أقبال فى منظومته رموز بى خودى .

احتفل بأقبال فى الجامعة الاسلامية وتكلم كثير فى الأشادة بأدبه . وكان ممن تكلم هناك مولانا أسلم الجراجبورى فقال :

قرأت الشعر بالعربيـة والفارسية والأردية . ولا حرج علىّ أن أقول أن أقبالا أعظم شعراء المسلمين . أن كلامه ليفيض بالحقائق الاسـلامية ولقد هدى ناشئتنا سواء السبيل . أن أقبالا حذر علوم الغرب ، ثم أبلغ المسلمين الرسالة التى بصّرتهم بحقيقة الاسلام وعظمته . وملأت قلوب الشباب الغافل النائم . بحب الرسول والقرآن .

ومنحت جامعة عليگره وجامعة اله آباد اقبالا لقب دكتور قدرا لمكانته في الأدب واعترافا بفضله

سفره الى افغانستان

دعا نادر شاه ملك الافغان رحمه الله ، محمد أقبال الى أفغانستان. ودعا معه السير راس مسعود والشيخ سليمان الندوى ، دعاهم ليشيروا على حكومته فى أمور الدين والتعليم .

وبلغ أقبال وصاحباه كابل فى آخر تشرين الأول سنة ١٩٣٣ فاحتفى بهم الملك والحكومة والكبراء والأدباء . ثم أشاروا على الحكومة بما رأوا فيه صلاح التعليم . فعملت بكثير مما أشاروا به .

وفى هذه السفرة ذهب الشاعر العظيم المولع بتاريخ الاسلام وسير عظمائه الى غزنة وقندهار ، فزار قبر مكسر الأصنام يمين الدولة وأمين الملة السلطان محمود الغزنوى ، وزار قبر الشاعر الصوفى الكبير مجدالدين سنائى . وله قصائد بليغة فى هذين المشهدين وغيرهما مما رأى فى أفغانستان .

وقد خلد هذه الرحلة بمنظومته « مسافر » ، كما سجلها الشيخ سيد سليمان الندوى فى كتاب .

فى السياسة

فلسفة أقبال فلسفة أمل وعمل وجهاد وأقدام ، ودعوة عزة وكرامة وحرية . فهى مدد للأمم المجاهدة لحريتها وكرامتها . تبعث فيها النور والنار .

وقد وجه دعوته الى البشر عامة ، والمسلمين خاصة . وأخذ من التاريخ الاسلامى أمثلة لفلسفته وصوراً لشعره .

كان شعره وما يزال ، أناشيد مسلمى الهند المجاهدين . ولا ريب أن شعر اقبال أشعل فى النفوس ثورة على سلطان الانكليز فى الهند ، وأمد المجاهدين بالأمل والعزم والاقدام .

وقد شارك اقبال ، الى هذا ، فى سياسة بلاده بأقواله وأفعاله ، ورأس مجامع سياسية . وكان عمادا قويا لحزب الرابطة الاسلامية .

وحَسْب رجل أن يقول فيه القائد الأعظم محمد على جناح :

كان لى صديقا ، وأماما وفيلسوفا . وكان فى أحلك الساعات التى مرت بالرابطة الاسلامية راسخا كالصخرة . لم يتزلزل لحظة واحدة قط

* * *

وألح عليه أصدقاؤه سنة ١٩٢٦ أن يرشح نفسه فى انتخاب الجمعية التشريعية فى بنجاب فأيده الناس وأنتخب بغير عناء . ولا تزال خطبه فى هذه الجمعية شاهدة بعمله فيها .

وقد عمل فى حزب الرابطة الاسلامية ورأس الاجتماع السنوى فى اله آباد سنة ١٩٣٠ . وكانت أحوال مسلمى الهند حينئذ تعظم الشقة والتبعة على من يتصدى لقيادتهم . وفى هذا الاجتماع ألقى خطبة مسهبة دعم فيها أراءه بحجج من الفلسفة والاجتماع والأخلاق . ونبه الناس الى أن اتحاد الهند عسير فى هذه الأحوال ولا سبيل الى جمع الكلمة الا باعتراف كل جماعة فى الهند بالجماعات الأخرى ، والتعاون بين الجماعات المختلفة .

قال : ان رينان الفيلسوف الفرنسى يقول : ان الانسان ليس أسيرا للجنس والدين ولا لمجارى الأنهار وسلاسل الجبال ، ولكن كل جماعة كبيرة من البشر ، صحيحة العقل حية القلب ، ينشأ فيها شعور يجمعها ، تسمى أمة .

يعنى أن الأمة لا تنشأ بالأقوام والأوطان ولكن بالشعور الذى يربط آحادها .

ثم قال اقبال : ان الفرق الاجتماعية والجماعات الدينية فى الهند لا تقبل التغاضى عن أشخاصها من أجل الوحدة الهندية ، حتى ينشأ لها هذا الشعور الذى ينشىء الأمة فى رأى رينان . ان لهذا الشعور ثمنا يأبى أهل الهند أن يؤدوه .

فينبغى اذاً ألا نلتمس اتحاد الهند فى محو الفوارق بين الجماعات بل نلتمسه فى الاعتراف باختلاف الجماعات والعمل للتعاون بينها .

ان السياسى ينبغى أن يعترف بالحقائق الماثلة ويستفيد منها جهد الطاقة. وأن وجدنا وسائل للتعاون الحق ، يحل السلام والصفاء فى هذه الأرض العتيقة ، وتحل مشاكل آسيا السياسية كلها . أنا ليحزننا أن نرى أخفاقنا فى مساعينا الى الاتفاق على ما يحقق السلام بيننا .

ويتصل بهذه الخطبة خطبته فى المؤتمر الاسلامى حينما تولى رياسة اجتماعه السنوى سنة ١٩٣٢ . قال فيها :

أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوربا . وليس أنكارى أياها خوفا من أن تضر بمصالح المسلمين فى الهند ولكن أنكرها لأنى أرى فيها بذور المادية الملحدة . وهى عندى أعظم خطر على الانسانية فى عصرنا .

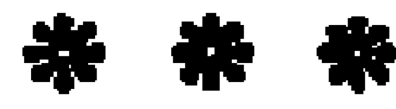
لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها فى حياة الانسان الأخلاقية ولكن العبرة فى الحقيقة بأيمان الانسان وثقافته وسننه التاريخية . هذه هى فى رأيى الأشياء التى تستحق أن يعيش لها الانسان ويموت من أجلها لا بقعة الأرض التى انصلت بها روح الانسان اتفاقا . »

وفى هذا توكيد لما قال من قبل عن مقومات الأمم فى خطبته سنة ١٩٣٠ . وكتب اقبال الى محمد على جناح رئيس الرابطة الاسلامية الملقب القائد الأعظم سنة ١٩٣٧ فقال فيما قال :

« أن خير وسيلة الى السلام فى الهند فى هذه الأحوال أن تقسم البلاد على قواعد جنسية ودينية ولغوية » .

كان اقبال أول من دعا الى أن تقسم الهند فيكون للمسلمين بها موطن يخصهم ، اذ رأى محالا أن يعيش سكان الهند جماعة واحدة أو جماعتين متعاونتين .

وكانت هذه ، فى رأى الناس ، دعوة عجيبة لقيها بعضهم بالتعجب والسخرية ورآها بعضهم حلم رجل مجنون .



واشترك أقبال فى مؤتمر الطاولة المستديرة سنة ١٩٣١و١٩٣٢ فى لندن وكان المؤتمر ينظر فى دستور جديد للهند . وكان لأقواله وأعماله أثر بيّن فى أعمال المؤتمر . وقد مرّ فى سفره بروما وأقام بالقاهرة أياما .

وقد احتفلت بمقدمه جمعية الشبان المسلمين وشهدتُ الاحتفال . ودعانى أستاذى الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله — وكان وكيل الجمعية — الى أن أعرّف الحاضرين بالضيف العظيم . فتكلمت على قدر معرفتى بأقبال يومئذ . وأنشدت بعض ما تذكرت من شعره وأذكر أنى أنشدت أبياتا من ديوانه رسالة المشرق .

وألقى هو محاضرة باللغة الانكليزية تكلم فيها عن تطور الفكرالاسلامى أو فى موضوع قريب من هذا . ولا أزال أتمثله قائما يتدفق فى بيانه ويَروع بعلمه وفكره . وقلت له بعد المحاضرة : ليس فى وسعى أن أنشد شعرك أحسن مما أنشدت . فقال أنشدت انشاداً صحيحاً .

وأذكر أنى كنت فى درس التاريخ الاسلامى فى كلية اللغة العربية من الجامع الازهر . فدخل هو وجماعة معه وأنا أتكلم فى أنساب العرب . ثم برح القاهرة . وكان هذا آخر عهدى به . توجه تلقاء بيت المقدس فشهد المؤتمر الاسلامى ، وتكلم هناك.ولو سجلت كلمة اقبال فى المسجد الأقصى لوجدنا فيها للمسلمين خيرا كثيرا .

وفى السنة التالية شهد مؤتمر الطاولة المستديرة الثالث وفى عودته مرّ

بأسبانيا ، ورأى آثار المسلمين فيها فأوحت اليها شعرا منه قصيدته الخالدة في جامع قرطبة . وقد استأذن حكومة أسبانيا في أن يصلي بالجامع . ولعلها أول صلاة فيه منذ غابت شمس الاسلام عن قرطبة .

والذي يرى صورة شاعرنا الفيلسوف المسلم الغيور مصليا في جامع قرطبة ، يقرأ قصيدة بليغة ويتخيل ما جال في فكر شاعر الاسلام في هـذا المقام الهائل ، والمشهد الرائع .

لقد نظم أقبال نفسه هذه القصيدة . ونشرت في ديوان بال جبريل . وهي أحدى بدائعه . لا يفوق شاعر أقبالا فيما نظم في جامع قرطبة ، ولكن أرى في صلاته قصيدة تروع نفسي معانيها ويكاد قلمي يخط ألفاظها . وعسى أن أخطها يوما . ماذا جال في نفس شـاعر الاسـلام وهو في محراب الجامع والجامع عطل من الصلاة والأذان وهو كما قال البحتري في ايوان كسرى:

فهو يبـدي تجـلدا وعليـه ... كلكل من كلاكل الدهر مرسي

بل كما قلت أنا فيه من شعر الصبي :

فهـو قلب من الأمان خلي ... حـائر في بلاه ليس بسـال
كاد يملي على عقائده الشك ... زوال التسبيح والاهـلال
فهو لولا الايمان هدمه اليأس ... فيخوي على الذرى والقلال
كيف آي أضاءها في جدار ... فلم تمد من مـداد الجمـال
هل لهـا قارىء هنـاك عليم ... بمعاني الهدى وسر الجـلال
سور تسكن الغبـار كماغا ... ض برمل نبع النمير الزلال
ومرايا الزمان تصـدأ كالمرآة ... قد طال عهـدها بالصـقـال

ليت شعري استطاع اقبال أن يسمع من وراء الأجيال الأذان . نردده مآذن جامع قرطبة ؟ أم أنصت الى القرآن يرتله الأئمـة في المحراب ؟ أم انقلبت آيات القرآن التي لا تزال تنبر في جدران المسجد ترتيلا في أذنه ، ووحيا في قلبه ؟ أي قصيدة هذه ؟ أي شاعر ينظم القصيدة التي عنوانها « أقبال في محراب قرطبة » .



محمد اقبال يؤدى الصلاة فى جامع قرطبة بالاندلس

ولما أعيد تنظيم الرابطة الاسلامية سنة ١٩٣٥ انتخب اقبال رئيس شعبة الرابطة فى بنجاب . وذلكم قبل وفاته بثلاث سنين .

ولم يُعجز اقبالا مرضُه المزمن ، عن التفكير والعمل والكتـابة ونظم الشعر . ورسائله التى كتبها فى آخر حيـاته الى القـائد الأعظم وغيره شاهدة بوقدة قلبه ، وذكاء عقله ، ومضيّه فى جهاده على العِلاّت وتعطّره فى حَلْبته حتى الممات .

لقب « سير »

فى سنة ١٩٢٢ قدم لاهور صحفى انكليزى سـاح فى الشرق وسمع صيت أقبال الأدبى فى أوربا وبلاد الشرق . فأشار على حكومة بنجاب أن تمنح الشاعر الكبير لقب سير . فدُعى أقبال الى دار حاكم بنجاب الانكليزى لأول مرة . وقـد حكى أحد أصـدقائه [1] أنه لم يرغب فى اجابة الدعوة وأنه ألحّ عليه وحمله فى عربته الى دار الحاكم . ثم اقترحت له ألقاب أقلّ من رتبة سير فأباها . ثم عُرض عليه لقب سير فرغب عنه ولكن أحد كبار أصدقائه [2] أصر على قبوله . فقبل على شرط أن يُمنح أستاذه ميرحسن ، لقب شمس العلماء . وهو الأستاذ الذى ثقفه فى الأدب العربى والفارسى كما ذكرنا قبلا . ولم يكن الأستاذ ذا صيت يسوّغ منحه هـذا اللقب ، ولكن أقبالا أصرّ عليه فقبله الحاكم .

وقد آخذ بعض الناس أقبالا بقبول هـذا اللقب من الانكليز وأذاعوا عنه أقاويل . ونشرت بعض الصحف نظما ونثرا فيهما هُزوٌ بالشـاعر الثائر داعية الحرية ، ولكن أصدقاءه والمعجبين به احتفلوا بهذه المنحـة احتفالا كبيرا عند قبر جهانكير فى ضـواحى لاهور . وشارك الهنـادك والسيك ، المسلمين فى هذا الاحتفال .

---

(١) مرزا جلال الدين

(٢) النواب السير ذو الفقار على خان .

وما كان لقبول هذا اللقب أثر ما في نفس الشاعر الفيلسوف وعمله • وما زال طول حياته ينفث شعره في النفوس حياة وقوة وإباء وجهادا ودعوة الى الحرية وثورة على الجبروت ، وإيقاظا للمسلمين خاصة،وتبصيرا لهم بمكانتهم في هذا العالم ومكانتهم في تاريخه • وما أعرف كشعر إقبال دعوة الى الثورة على الاستعباد والتمرد على الطغيان ، والى لقاء الشدائد في هذه الحياة بأكبر منها أملا وعزما وجهادا •

مرضه

شرعت العلل تعترى الشاعر الفياض ، الذى يخيل الى قارئه أنه لا يفتر ولا يمل ولا يمرض ولا يموت •

أصابته حصاة في الكلية فعالجه الحكيم البصير الدهلوى [1] فنجح علاجه •

وفي سنة ١٩٣٥ بح صوته ، وجهد كثير من الأطباء في شفائه . فلم يجد جهدهم حتى عالجه الحكيم البصير فخفت العلة قليلا •

وفي السنة نفسها توفيت زوجه فبلغ موتها من نفسه ، وأحزنه كثيرا •

وترادفت علل أصاب بعضها القلب ، واستمرت تنقص من قوته شيئا فشيئا ، تنقص من قوة جسمه ولا تنال من عقله وروحه • فلم يفتر عن نظم الشعر ، ولم ينقطع عن التفكير والبيان حتى الأيام الأخيرة •

واشتدت العلة في شهر نيسان ١٩٣٨ • وبلغت مبلغ الخطر في التاسع عشر من الشهر • وعنى الأطباء به كل عناية فما أغنى حرصهم على شفائه شيئا •

---

(١) حكيم نابه وهو طبيب في الطب الاسلامى المسمى في الهند الطب اليونانى وكان ضريرا وله في العلاج بصيرة فاق بها المبصرين .

وكان رحمه الله يحس دنو أجله ويذكره غير هائب ولا جازع . وكان يردد قبل موته ببضعة أيام أن المسلم يلقى الموت مسرورا . وقال لصديق ألماني قبل وفاته بيوم : أني مسلم لا أرهب الموت . اذا جاء الموت لقيته مبتسما .

وأرسلت اليه جزازة من صحيفة فى جنوبى أفريقية فيها أن المسلمين فى اجتماع لهم فى ناتال ، دعوا له ولجناح وكمال أتاتورك بطول الحياة . فقال : أنا ختمت عملى . وجناح يؤدى رسالته . فعلى المسلمين أن يدعوا له هو بطول العمر . وفى مساء العشرين من نيسان دخل عليه ابنه جاويد وسنه حينئذ ثلاث عشرة سنة . فقال له : هلم الي يا بني ! اجلس ، فما أدرى لعلّى ضيف لبضعة أيام . قال أحد الحاضرين : أنه صغير السن يفزعه مرضك . فأجاب أريد أن يلقى كل حدث لقاء الرجال . وقال لچود هرى محمد حسين ــ وكان من المقربين اليه ووصى على أولاده بعد موته ولقيته سنة ١٩٤٧ فى لاهور وذهبت معه الى دار اقبال وقبره . وفى دار اقبال لقيت جاويد فأهدى الي صورة والده . ولم يعش محمد حسين بعد صديقه كثيرا ــ قال له اقبال : كتبت فى آخر « جاويد نامه » أبياتا عنوانها « خطاب لجاويد » وقلت فيها : أن فى عصرنا هذا قحطا فى الرجال . وعسير فيه الظفر بلقاء رجال الله . فأن تكن سعيد الجد لقيت أحد أصحاب البصائر . والا فاعمل بهذه النصائح .

ثم قال : وحين يشب جاويد ، بعد موتى ، أفهمه هذا الشعر

وفى هذه الليلة سئل عن صحته فقال : أريد الخلاص من هذه المشقة فورا .

وفاته

روى عن راجه حسن ، وكان مع اقبال ليلة وفاته ــ ولقيته فى لاهور مرات وفى كراچى وسمعت منه هذا ــ أن اقبالا رحمه الله أنشد قبل موته بنحو عشر دقائق :

سرود رفته باز آيد كه نايد نسيمى أز حجاز آيد كه نايد
سر آمد روزگار اين فقيرى دگر داناى راز آيد كه نايد

وترجمتها :

«نغمات مضين لى هل تعود ؟ — أنسيم من الحجـــاز يعود ؟
آذنت عيشتى بوشك رحيــل — هل لعلم الأسرار قلب جديد؟»

ومن شعر اقبال :
نشان مرد مؤمن باتو گويم — چو مرگ آيد تبسم برلب أوست

ترجمته :

« آية المؤمن أن يلقى الردى — باسم الثغر سرورا ورضـــا »

وكذلك كان أقبال حين الموت ، وضع يده على قلبه قائلا : الآن بلغ الألم هنا ، وتأوه وأسلم الروح الى خالقها وهو مبتسم ، وما بدا عليه أثر من سكرات الموت ، وكان الى اللحظة الأخيرة كامل الشعور

انا لله وانا اليه راجعون

عمــره

توفى اقبال وعمره بالتوقيت الهجرى :
ســـبعا وســتين ســنة وشــهرا وستة وعشرين يوما
وبالحساب الشمسى خمسا وستين سنة وشهرا وتسعة وعشرين يوما

الاحتفال بجنازته ودفنه

شاع فى الناس النبأ الفاجع ، والخطب الصاعق ، نَعىُ اقبال ، فكان الأسى على قدر حب النـــاس اياه ، وأكبارهم وأعظامهم له ، وعلى قدر ما وعت قلوبهم ، وأنشدت أفواههم من شعره ، وعلى قدر ما نفذت الى سرائرهم ، وأثارت فى ضمائرهم أقوال الرجـــل العظيم الخـــالد ؛ داعيةِ الحياة والأقدام ومصوّر الانسانية فى أروع صورها وواصف الحيـــاة فى



« جاويد منزل » منزل اقبال بمدينة لاهور



ضريح المرحوم محمد اقبال بمدينه لاهور
ويرى خلفه قباب المسجد الجامع

أجمل وجوهها .

عُطلت الدواوين والمتاجر ، وذهب الناس زُرافات ووِحدانا الى « جاويد منزل » دار محمد اقبال .

رأيت أنا هذه الدار مرات . ما ذهبت الى لاهور الا زرتها . وهى دار صغيرة ، طبقة واحدة ، يلج داخلها الى فِناء صغير ، ثم يصعد درجات الى بهو ، يفضى الى حجرتين عن يمين وشمال . دخلت الحجرة التى الى الشمال وقيل هذه حجرة أقبال . كان ينام فيها ويكتب شعره ، ويمضى كثيرا من وقته .

قلت هذه الحجرة التى وسعت الدنيا بل وسعت العالم ، بل وسعت ماهو أعظم من العالم وأوسع ، قلب المؤمن . كم تنزل فى هذه الحجرة وحىُ الشعر ! وكم ازدحمت فيها أفكار الفلسفة وكم خفق فيها قلب هو كما قلت قبلا فى رثاء محمد فريد رحمه الله :

قلبٌ يُريد زِمامه وطماحه زِلزال هذى الأرض بالخفقان

قبره

اتفق جماعة من أصدقاء أقبال وأولى الرأى فى المدينة على أن يتخذوا لشاعر الحياة قبرا فى فناء المسجد الجامع (شاهى مسجد) . وهو فناء واسع يفضى اليه من جهة الجنوب باب كبير فى سور حول المسجد عال ، تمتد معه أبنية كثيرة .

اختيرت بقعة الى يسار الداخل الى الفناء ، على مقربة من الدَرج الكبير الصاعد الى باب المسجد الرائع ، اختيرت هذه البقعة لجثمان أقبال ، اتخذت هذه الخزانة لهذا الكنز ، بل اتخذ هذا الصوان لهذا الكتاب الخالد .

وقد رأيت ضريح أقبال سنة ١٩٤٧ م وكانت الحجرة التى فيها الضريح لم يكمل بناؤها . ثم زرته مرات من بعد حينما قدمت باكستان سفيرا .

وقد تمثّت الحجرة ونقش على أعلى جِدْرها أبيات من شعر أقبال ، بتردد نظر العبرة والخشوع بينهـا وبين الضريح الماثل الذى بحنو على رفات الشاعر الخالد •

وعلى الضريح صفائح من المرمر • وقد كتب على شاهده أن محمد نادر شاه ملك الأفغان أمر بصنع هذا الضريح اعترافا منه ومن الأمة الأفغانية بفضل الشاعر •

ان فى هذا الضريح الثاوى فى حضانة المسجد الكبير ، الذى بناه محيى الدين أورنگزيب ، الذى بلغت دولة المسـلمين فى عهده أوج عزتهـا ، والقائم على مقربة من الآثار الرائعة التى خلّفها ملوك المسلمين فى قلعـة لاهور الهائلة — ان فى هذا الضريح لوَحيا لا يفتر ، وذكرى لا تنقطع . من حاضر المسلمين وماضيهم ، ومن معالى الاسـلام وشعر أقبال • وأن شعر أقبال ليُجلّى لقارئه حضـارة الاسلام وتاريخه ، فى صوَر رائعة هائلة ، ونفـر هذه الآثار المحيطة به تفسيرا جميلا جليـلا . وأن من يقرأ شعر أقبال ليستأنف فى الاسلام وتاريخه نظرا ، ويُجد فيه تفكيرا •••
ماذا عسى أن نقول قائل فى أقبال وضريح أقبال • حسبك أيهـا القلم • يرحم الله محمد أقبال •

صدى نعيه فى الهند

كانت وفاة أقبال حسرة على مسلمى الهند بما فقدوا المرشد الهادى ، وافتقدوا الدليل الحـادى ، وبما حُرموا هذا الينبوع الترار بل النهـر الهدّار •

وقد رددت هذه الحسرةَ مقالاتهم ، ورسـائلهم وأشـعارهم وشارك المسلمين غيرُهم فى الأسى عليه وآكبار فقده

وقراء العربية أكثرهم ، لا يعرفون كبراء الهند وأدباءها • فأثبتَ هنا طرفا من أقوالهم • فحسبى أن أثبت مقال رجلين أحدهما زعيم سياسى مسلم ،



الدكتور عبد الوهاب عزام ـ مؤلف الكتاب ـ عند ضريح اقبال
(٤ رمضان سنه ١٣٧٢ هـ)

وثانيهما شاعر فيلسوف هندوكي ، ذانكم محمد على جناح رئيس العصبة الاسلامية ومؤسس باكستان . والثاني طاغور الشاعر الذى ذاع ذكره فى المشرق والمغرب .

قال محمد على جناح :

« كان شاعرا منقطع النظير ، طبّق صيته الآفاق . وستبقى كلماته حيّة أبدا . وان مساعيه لأمته وبلده لتضعه فى صف أكبر كبراء الهند . وان وفاته اليوم لخسارة كبيرة للهند عامة والمسلمين خاصة » .

وقال فى خطاب ألقاه فى الاحتفال بذكرى اقبال فى جامعة بنجاب سنة ١٩٤٠ م

ان حييت حتى رأيت للمسلمين دولة قائمة فى الهند فخيّرت بين الرياسة العليا فى هذه الدولة المسلمة ، وبين كتب اقبال لم أتردد فى اختيار الثانية.

وكتب الى ابن اقبال بعد وفاته :

« كان لى صديقا ومرشدا وفيلسوفا . وكان فى أحلك الساعات التى مرت بالرابطة الاسلامية راسخا كالصخرة ، لم يتزلزل لحظةواحدةقط» .

وقال طاغور :

تركت وفاة اقبال فى أدبنا خلاء يشبه جرحا مهلكا ، ولن يملأ الا بعد مدة مديدة . ان مكانة الهند فى العالم ليست مكينة فموت شاعر عالمى كهذا مصيبة لا تحتملها البلاد .

ومما قاله طاغور كذلك :

لا ريب عندى أن ما ناله شعر اقبال من قبول وصيت يرجع الى ما فيه من نور الأدب الخالد وعظمته . ويؤسفنى أن بعض النقاد وضع أدبى وأدب اقبال فى ميزان المنافسة ، وجهدوا أن يشيعوا أغلاطهم فى هذا الشأن . وهذا عمل لا يليق بالأدب الفسيح الذى يخاطب النوع الانسانى كله . لأن فى ساحة الأدب العالمى يقوم الشعراء وأولو الفن فى صف واحد من الأخوة الانسانية .

ويقينى أنى ومحمد اقبال عاملان للصدق والجمال فى الأدب . ونحن نلتقى حيث يقدّم القلب الانسانى والعقل الى عالم الانسانية أجل هداياهما وأروعها .

الباب الثانى

فلسفة اقبال

الفصل الأول منظومة اسرار خودى

يستطيع الناقد البصير أن يجد فى شعر اقبال ، الذى أنشأه فى صباه قبل سفره الى أوربا ، لمعاً من فلسفته ، وشرراً من ناره التى اشتعلت فأضاءت من بعد . وتتسع هذه اللمع ويكثر هذا الشرر على مر الزمان حتى ينشر أول دواوينه الفلسفية أسرار خودى سنة ١٩١٥ م فيتجلى مذهبه ، وتتضح طريقته فى الفلسفة والشعر . ان نشر منظومة « أسرار خودى» حد بين عهدين . فالشعر الذى نشر قبلُ فيه نفحات من فلسفته، ولفحات من شعره متفرقة غير جلية . ويتضمن هذا الشعر ديوان بانگ درا (صلصلة الجرس)

وأسرار خودى تمتاز بأنها منظومة واحدة على القافية المزدوجة فيها فصول يوضح فيها اقبال فلسفته فى الذات فكرة بعد فكرة ، ولكن هذه الفلسفة ممزوجة بالشعر عليها رونقه ومعها أخيلته وصوره . فهى فلسفة فيها شعر .

ويكمل هذا الديوان ديوانه الثانى الذى نشره سنة ١٩١٨ : « رموز بى خودى » .

والدواوين التى أنشئت بعد ، شعر فى موضوعات شتى . وصور لا ينالها حصر ، ولكن فلسفته تشيع فيه ظاهرة وخفية ، وصريحة ومكنية. ويسوغ أن نصف هذه الدواوين بأنها شعر فيه فلسفة .

نشرت منظومة أسرار خودى سنة١٩١٥م فثار الناس لها بين راض وساخط. ومستحسن ومستنكر ، بل بين مصفق طربا يثنى معجبا ، وصائح يتعجب

ويستنكر ، ويتدبر . ويتفر وقبل أن أبين كيف تلقى الناس فلسفة اقبال كما بينها فى كتابه « أسرار خودى » أثبت خلاصة المقـدمة المنثورة التى صدر بها اقبال كتابه :

* * *

يقول اقبال فى رسالة الى الشاعر الكبير أكبر اله آبادى الملقب لسان العصر ، كتبها فى ١٨ اكتوبر ١٩١٥ . بعد نشر أسرار خودى بستةأشهر :
« الدين بغير القوة فلسفة محضة » . [١]

« هذا حق لا ريب فيه . وهذا فى الحقيقة ، ما دعانى الى كتابة المثنوى (أسرار خودى) . وأنا منذ عشر سنين فى هم وتفكير من أجـل هـذا الموضوع . »

فقد لبث اقبال سنين يفكر فى حال المسلمين ، ويمعن النظر فى أسباب ضعفهم ، ويجيل الفكر فى ماضى الأمم وحاضرها ، ويقرأ فلسفاتها حتى انتهى الى مذهبه الذى أبان عنه فى منظومته هذه : (أسرار خودى)

قدم الشاعر لهذه المنظومة مقدمة منثورة مجملة بحث فيهـا فى نفس الانسان ومذاهب الأمم فيها ، وفى العمل واختلاف الفلسفات فيه .

وحذف الشاعر هذه المقدمة بعد الطبعة الأولى ، ولكنها على اجمالهـا تبين المذهب الفلسفى الذى ذهب اليه الشاعر حين نظم كتابه . وتجمـع للقارىء ما انتشر فى هذا النظم من آراء .

وسأجمل القول فيها على اجمالها :

---

(١) مأخوذ من بيت لأكبر :
نهو مذهب مـين گر زور حـكومت
تو وه كيـا هى ؟ نرا اك فلسفـه هى

— ١ —

يبدأ اقبال المقدمة بقوله :

« هذه الوحدة الوجدانية أو نقطة الشعور المنيرة التي تستنير بها أفكار الانسان وعواطفه ورغباته ، أمر تحيطه الأسرار ، ينَظِم ما في فطرة الانسان من كيفيات متفرقة غير محدودة .

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودى) أو (مين) [1] الذي يبدو في أعماله ويخفى في حقيقته ، والذي يخلق كل المشاهدات ولكن لطافته لا تحتمل المشاهدة . ؟ أهو حقيقة دائمة أم أن الحياة تجلت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجليا عرضياً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟ »

ان سيرة الأفراد والجماعات موقوفة على جواب هذا السؤال ...... ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل الى أن تعتبر « أنا » في الانسان من خداع الخيال . وهى تعد الخلاص من هذا الغلّ نجاة . ومَيْل أهل الغرب الى العمل ساقهم الى ما يلائم طباعهم في هذا البحث . »

— ٢ —

ويمضي اقبال في مقدمته قائلا :

اختلط في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطا عجيبا . ودقق حكماؤهم في حقيقة العمل وانتهوا الى هذه النتيجة : أن حياة « أنا » المسلسلة ؛ وهى أصل المصائب والآلام . منشؤها العمل ، وأن حالة النفس الانسانية نتيجة محتومة لأعمالها

---

(١)خودى بالفارسية معناها الذات او الذاتية ، ومين بالاردية معناها « انا »

ولا ريب أن آراءهم جديرة بالاعجاب من جهة الفلسفة ، ولا سيما جرأتهم على قبول كل نتائج هذه القضية ، وقولهم انه لا سبيل الى الخلاص من شرك « أنا » الا ترك العمل .

ولكن فى هذا خطرا عظيما فى حياة الواحد والجماعة . فلم يكن بد من أن يظهر فى الهند مجدد يبين حقيقة المقصود من «ترك العمل» . وكان هذا المجدد شرى كرشن . فقد بين أن ليس المقصود ترك العمل حقا ، فالعمل مقتضى الفطرة وفيه قوة الحياة . بل المقصود ألا يرتبط قلب الانسان بالعمل ونتائجه . وتبع هذا المجدد آخر هو شرى رام نوج ولكن جاء على أثرهما شرى شنكر أچاريه فخالفهما وحرم الناس من ثمرات هذا التجديد .

— ٣ —

وكانت رسالة الاسلام فى غربى آسيا دعوة الى العمل بليغة . فالاسلام يرى أن « أنا » مخلوق ينال الخلود بالعمل ، ولكن تشابها عجيبا فى تاريخ الفكر الهندى والاسلامى ، يظهر فى بحث هذه المسألة . فالفكرة التى فسر بها شنكر أچاريه، كتاب الجيا (گيتا) هى الفكرة التى فسر بها القرآن محيى الدين ابن عربى الأندلسى . وكان له أثر بليغ فى عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربى بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصرا فى الفكر الاسلامى . واقتفى أثره أوحد الدين الكرمانى [1] وفخر الدين العراقى [2] حتى اصطبغ بهذه الصبغة كل شعراء العجم فى القرن السادس الهجرى . ان مزاج الايرانيين الرقيق وطبعهم اللطيف ، لم يصبر على

(١) الشيخ أبو حامد أوحد الدين الكرمانى كان من تلامذ ابن عربى وتجلى وحدة الوجود فى شعره . وله منظومة اسمها مصباح الارواح بين فيها سبل طريقته .

(٢) الشيخ فخر الدين العراقى ، لقى الشيخ صدر الدين القونوى خليفة ابن عربى وأخذ عنه وألف كتاب اللمعات الذى كتب عليه الشيخ عبد الرحمن الجامى أشعة اللمعات توفى سنة ٦٨٨ هـ

المشقة الفكرية التي لا بد منها في السير من الجزء الى الكل . فطووا المرحلة الوعرة التي بين الجزء والكل بالتخيل ، ورأوا في «عرق السراج» «دم الشمس» وفي «شرار الحجر» جلوة الطور [1] .

— ٤ —

خاطب فلاسفة الهند العقل في اثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء ايران القلب فكانوا أشد خطرا وأكثر تأثيرا ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة فسلبوا الأمة الاسلامية الرغبة في العمل .

ولعل شيخ الاسلام ابن تيمية من علماء المسلمين ، وواحد محمود من فلاسفتهم ، أول من رفعوا الصوت باستنكار هذه النزعة ، ولكن مصنفات واحد محمود لا تلفى اليوم . ولا ريب أن منطق ابن تيمية القوى أثر أثره ، ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نضرة الشعر وفتنته .

وقال الشيخ علي حزين : ان التصوف جيل في الشعر . فدل على أنه عرف حقيقة الأمر ، ولكن أقواله تدل على أنه لم ينج من تأثير بيئته . فكيف كان الفكر الاسلامي في الهند يستطيع المحافظة على نزوعه الى العمل ؟

استولت على مرزا بيدل لذة السكون فلم يستحسن حتى طرفة العين . يقول :

« ان في بيت الزجاج لطائف محيرة . فلا تطرف عينك فتخدش صبغة هذا المنظر [2]

(١) هذا تمثيل لعبارات مألوفة في شعر الصوفية .

(٢) نزاكت هاست دراغوش مينا خانه حيرت
مژه برهم مزن تانشكنى رنگ تماشارا
وبيت الزجاج « ميناخانه » هو هذا العالم التي تقوم فوقه القبة الزرقاء .

وللشاعر تمثنا بيت يقول فيه :

« انظر الى كل ما يأتى أمامك ولا تنطق . اتخذ عينا كعين مرآة وفما كفم الصورة » [1]

— ٥ —

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها الى العمل . فآراؤهم خير دليل لأمم المشرق الى فهم أسرار الحياة .

بدأت الفلسفة الجديدة فى الغرب من وحدة الوجود التى دعا اليها الفيلسوف الهولندى الاسرائيلى [2] ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب . فلم يلبث طويلا طلسم وحدة الوجود التى أثبتت بأدلة رياضية . سبق الألمان الى اثبات حقيقة (أنا) الانسانية المستقلة ، ثم تحرر من هذا الطلسم الخيالى فلاسفة الغرب على مر الزمان ولا سيما فلاسفة الانكليز .

والحق أن لأفكار الانكليز العملية فضلا على أمم الأرض كلها . فان « احساس الواقعات » عندهم أحد منه عند الأمم الأخرى . ولهذا لم يروج فى بلاد الانكليز حتى اليوم كل نظام فلسفى من نسج الفكر لا يثبت فى ضوء الواقعات .

— ٦ —

ويختم اقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التى هى موضوع هذه المنظومة . وقد

---

(١) دیکه جو کچه سامنى آجائى مونهه سى كچه نه بول
آنكه آيينـه كى پيداكر ، دهن تصوير كا
(٢) يعنى اسبنوزا

اجتهدت أن أحرر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلة الفلسفية ، وألونها بألوان الخيال ليتيسر ادراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة الى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدل على الطريق من لم يلم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة

ولا ينبغى هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، فأنما خيال الشعر فيها وسيلة الى توجيه الناس الى هذه الحقيقة :

ان لذة الحياة مرتبطة باستقلال « أنا » وباثباتها واحكامها وتوسيعها . وهذه الدقيقة تمهد الى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

— ٧ —

وينبغى أن يعلم القراء أن لفظ « خودى » لا يستعمل فى هذه المنظومة بمعنى الأثرة كما تستعمل فى اللغة الأردية غالبا . انما معناها الاحساس بالنفس أو تعيين الذات . وهى بهذا المعنى فى كلمة«بيخودى» كذلك . »

***

هذه خلاصة المقدمة المنثورة التى أثبتها محمد اقبال فى الطبعة الأولى لأسرار خودى ثم حذفها فى الطبعات التالية .

وقد كتب الأستاذ نكلسون المستشرق الانكليزى ، مترجم مثنوى جلال الدين الرومى ومترجم أسرار خودى الى الانكليزية — الى اقبال يسأله أن يكتب مقالا يوضح فيه مذهبه فكتب اليه مقالا أجمل فيه فلسفته ؛ فأثبت نكلسون بعضه فى مقدمة ترجمته لأسرار خودى . والمقال احسن مقدمة لهذه المنظومة ولفلسفة اقبال كلها .

وقد رأيت أن أثبته هنا فترجمته من النص الأردى مع تغيير قليل واختصار ، واليك المقال :

« يقول الأستاذ بريدلي [1] ان الشعور يقع في مراكز معينة ويعبر عنه عبارات مختلفة ثم ينتهي الى أن يكون غير قابل للتفسير ، ولكن هذا الذى لا يقبل التفسير اذا تجاوز مراكز الشعور ينتهي الى وحدة يعبّر عنها بالمطلق تفقد فيها كلُّ مراكز الشعور المحدودة فرديتها كما تفقد القطرة فى البحر .

يرى بريدلي أن هذه المراكز المحدودة ليست الا مظهرا . وفى فلسفته أن ثبوت الحقيقة بعمومها . فالحقيقة فى نفسها محيطة . وكل محدود اضافيّ لا مطلق . فهو خداع نظر . كل شيء فى الكائنات محدود ، فهو اضافى فهو باطل .

فمذهب الأستاذ بريدلي أن كل مركز للشعور محدود ، أى كل ذات مفردة ، خداع نظر وباطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا ، ان مركز الشعور المحدود الذى لا يدرك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حق لا باطل .

الحياة كلها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجى . حيثما تجلت الحياة تجلت فى شخص أو فرد أو شيء . والخالق كذلك فرد ولكنه أوحد لا مثل له .

وظاهر أن هذا التصور للكائنات يخالف كل المخالفة ما ذهب اليه شرّاح فلسفة هيكل من محدثى الانجليز ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذى يرون أن مقصد حياة الانسان أن يفنى نفسه فى الحياة المطلقة أو « أنا » المطلق كما تفنى القطرة فى البحر .

أرى أن هدف الأنسان الدينى والاخلاقى أثبات ذاته لا نفيها ، وعلى

---

(١) الاستاذ بريدلي Bradly كان أستاذ الفلسفة في جامعة اكسفورد . ولد سنة ١٨٤٦ وتوفى سنة ١٩٢٤ . وله كتب كثيرة فى الفلسفة . وهو من القائلين بوحدة الوجود على مذهب هيكل الفيلسوف الالمانى .

قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم «تخلقوا بأخلاق الله» فكلما شابه الانسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فردا بغير مثيل .

اننا نسأل ما الحياة ؟ وواضح أن الحياة أمر فردي . وأعلى أشكاله (التى ظهرت حتى اليوم) « أنا » وبها يصير الفرد مركز حياة مستقلا قائما بنفسه . فالانسان من الجانبين الجثمانى والروحى ، مركز حياة قائم بنفسه ولكنه لمّا يَبلغ مرتبة الفرد الكامل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق . والانسان الكامل هو الأقرب الى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب أن يفنى وجوده فى وجود الله ، كما تقول فلسفة الاشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يمثّل الخالق فى نفسه .

وقد بيّن جلال الدين الرومى هذه النقطة بيانا حسنا اذ قال : ان حليمة السعدية حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم افتقدته يوما وهو طفل . ففزعت وتولهت ، فسمعت من الغيب هذا النداء : « لا تحزنى فلن تفقديه، بل العالم كله يفقد فيه » !

يعنى أن الفرد الكامل والانسان الحقيقى لا يضل فى الكائنات بل تضل هى فيه أى تسخر له فيتصرف فيها .

وأنا أجاوز هذه المنزلة فأقول : يُفقد رضا الحق (الله) فى رضاه

الحياة رقىٌ مستمر ، تسختر كل الصعاب التى تعترض طريقها . وحقيقتها أن تخلق دائما مطالب ومُثلا جديدة. وقد خلقت من أجل اتساعها وترقيها آلات كالحواس الخمس والقوة المدركة لتقهر بها العقبات والمشقات .

وأشد العقبات فى سبيل الحياة المادة أو الطبيعة ، ولكن المادة ليست شرا كما يقول حكماء الأشراق ، بل هى تُعين الذات على الرقى ، فأن قوى الذات الخفية تتجلى فى مصادمة هذه العقبات .

واذا قهرت الذات كل الصعاب التى فى طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذات فى نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنها اذا قاربت الذات المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياة جهاد لتحصيل الاختيار ، ومقصد الذات أن تبلغ الاختيار بجهادها .

دوام الذات او الشخصية

مركز حياة الأنسان ذات (خودى) أو شخص ، أعنى أن الحياة حينما تتجلى فى الأنسان تسمى ذاتا .

وشخصية الأنسان من الوجهة النفسانية حال من التوتر . ودوام الشخصية موقوف على هذه الحال . فان زالت هذه الحال عقبتها حال من الاسترخاء مضرة بالذات . فأن يكن فى حالة التوتر هذه كمال الأنسان فأول فرض عليه أن يعمل لدوام هذه الحال والحيلولة دون حال الاسترخاء. وكل ما يمكننا من ادامة حال التوتر يمكننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معيارا لقيم الأشياء أعنى أن فى ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تحل مسألة الخير والشر ، فما يقوى الذات خير وما يضعفها شر . ويجب أن يقوم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار .

واعتراضى على أفلاطون ، هو فى أصله اعتراض على كل النظم الفلسفية التى تقصد الى الفناء لا البقاء ، والتى تغفل المادة ، وهى أكبر العقبات فى سبيل الحياة ، وتدعو الى الفرار منها لا الى تسخيرها والتسلط عليها .

وكما تعرض مسألة المادة فى مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان فى مبحث خلودها .

يقول برجسون : ان الزمان ليس خطا ممتدا الى غير نهاية يتحتم علينا المرور به . فهذا التصور للزمان غير صحيح فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصور الطول أي لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

ان خلود الذات أمل ، من أراد أن يظفر به فليجدّ ويدأبْ لبلوغه . والظفرُ به موقوف على أن نسلك طريقا للفكر والعمل فى هـذه الحيـاة يُعيننا على حفظ حالة التوتر . ولا يستطيع ابلاغنا هذا الأمل دينُ بوذا والتصوف العجمى ، وما الى هذين من تُعلّم الأخلاق الأخرى . لقـد أضرت بنا هذه الطرق فأضرعتنا وأنامتنا . ان هذه المذاهب هى الليالى فى أيام حياتنا .

وانْ قصدنا بأفكارنا وأعمالنا الى حفظ حالة التوتر فى ذواتنا ، فأغلب الظن أن صدمة الموت لا تستطيع أن تؤثر فيها . تَعرض بعد الموت حال من الاسترخاء يُسمّيها القرآن الحكيم ، البرزخ . وتدوم هذه الحال حتى الحشر . ولا تبقى بعد هذا الاسترخاء الا النفوس التى أحكمت ذواتهـا أيام الحياة .

ان الحياة فى ترقيهـا تنفر من التكرار كلَّ النفور ، ومع هـذا يقول الأسـتاذ ولدن كار [1] بناء على القواعد التى وضعها برجسون ، ان حشر الأجساد معقول أيضا .

اننا نقسم الزمان الى لمحات فندخل فيه مفهوم المكان ، فيصعب علينا تسخيره . وانما نستطيع ادراك معنى الزمان ادراكا صحيحا حينما ننظر فى أعماق ذواتنا . أن الزمان الحقيقي هو اسم آخر للحياة . وأن الحياة تستطيع المحافظة على حالة التوتر التى حافظت عليها حتى الساعة . وان

---

(١) كان أستاذ الفلسفة فى كنجس كولج King's College . توفى ١٩٢١

نخلص من عبودية الزمان مادمنا نعده أمرا مكانيا .

أنما الوقت المكانى قيد توسلت به الحياة الى تسخير ما حولها .

تربية الذات

لا ريب أن الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جدا . ومعناه أرادة الجذب والتسخير وأعلى أشكاله أن يخلق مقاصدهويجد في نيلها . وخاصة العشق أفراد العاشق والمعشوق . أعنى أظهار الانفراد والاستقلال فيهما . واذا جد الطالب فى طلب الأوحد الأسمى ظهر فيه التوحد ، ويتحقق ضمنا توحد المطلوب . لأنه أن لم يكن واحدا مستقلا بنفسه لم يسكن الطالب اليه . أنما يمكن عشق شخص أو وجود معين ولا يمكن لشخص عشق كائن غير مشخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعد سؤالا . فالذى يرث مال غيره سائل . والذى يتبع أفكار غيره أو يدعيها لنفسه سائل .

والخلاصة أنه ينبغى لأجل أحكام الذات أن نخلق فى أنفسنا العشق ونجتنب كل ضروب الاستجداء (أى البطالة) .

أن فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة للمسلم . فقد كانت حياته خير مثل للسعى الدائم . لقد كانت حياته كلها صورة للعمل.

أشرت فى فصول من هذا المثنوى الى أصول فلسفة الأخلاق الاسلامية. وبينت أن لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ ــ اطاعة القانون الالاهى

٢ ــ وضبط النفس

٣ ــ والنيابة الالاهية

والنيابة الالاهية فى هذه الدنيا هى أعلى درجات الرقى الانسانى .

ونائب الحق (الله) خليفة الله فى الأرض . وهو أكمل ذات تطمح اليها الانسانية ، وهو معراج الحياة الروحى .

تلتئم فى حياة نائب الحق عناصر النفس المتضادة ، توحّدها أعلى القوى وأعلى الأعمال . فيتوحد فيها الذكر والفكر ، والخيال والعمل ، والعقل والخصائص الجبلّية . فهو آخر ثمر فى شجرة الأنسانية . تحبّب اليه الصعاب والشدائد فى سبيل رقى الحياة . وهو الحاكم الحق لبنى الأنسان لأن حكومته هى فى الحقيقة حكومة الله ... ونحن نقترب منه على قدر ارتقائنا وبهذا القرب تعلو قيمتنا فى الحياة .

وأول شرط لظهور نائب الحق أن ترقى الأنسانية فى جانبيها الروحى والجسمى . فان ارتقاء الأنسانية يقتضى ظهور أمة مثالية تتجلى فى أفرادها فى الجملة هذا التوحد الذاتى ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله فى الأرض أن تقوم فيها جماعة شورية يتوحد أفرادها، ويقوم على هذه الجماعة واحد يمكن أن يتسمّى نائب الحق أو الانسان الكامل ، وهذا الأنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال التى لا تتصور فوقها ذروة .

وقد رأى نطشه (الفيلسوف الالمانى المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة المثالية ولكن دهريته واعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها . »

كيف تلقى الناس منظومة أسرار خودى

قال بعض الناس لأقبال أحسنتَ وأبدعت ، عرفتَ الداء ووصفتَ الدواء . وقال آخرون :

حِدتَ عن الطريق . ولم يصحبك التوفيق . وأنكرت التصوف . وازدريت أئمة الصوفية .

وكثرت المقالات فى القبول والرد ، والمدح والقدح . وأقصد هنا الى

تبين ماكان لأسرار خودى من أثر فى نفوس الناس،لماذا قبلها واستحسنها وأعجب بها وأشاد بناظمها من قبل واستحسن وأعجب وأشاد . ولماذا نفر منها من نفر واستنكرها من استنكر . ولعل فى بيان هذا وذاك بيانا للجديد فى هذه المنظومة ، والبدع فيما حوته من آراء :

تلقى بعض الصوفية دعوة اقبال فى أسرار خودى بالاستنكار والرد ، اذ وجدوها دعوة الى « خودى » وهى كلمة تدل فى لغتها الفارسية على الأثرة والعجب والأنوية وما يتصل بها . وتستعمل كذلك فى الأردية فهى دعوة فى الاخلاق منكرة ، وفى التصوف أشد نكرا . وقد نقل اقبال « خودى » الى معنى آخر جعله أصل فلسفة له . فأراد بها الذاتية ، وقال فى فلسفته ان العالم قائم بهذه الذاتية وان الانسان بهذه الذاتية يقوم ، على قدر قوتها وضعفها ، بل يخلد أو يفنى باستحكامها أو اضمحلالها ، وان مقصد الانسان فى هذه الحياة معرفة ذاته وتقويتها وتنمية مواهبها واستنباط مافى فطرتها . وليس من الخير فى شىء انكار الذات أو اضعافها، بل هو الشر كل الشر . ولا ينبغى العمل لفنائها ولا الرضا به كما يفعل الهنادك وصوفية العجم — كما يقول اقبال — بل لا تفنى الذاتية فى الله تعالى وليس من الخير السعى الى افنائها فيه :

أحكم نفسك فى حضرته ، ولا تفن فى بحر نوره [1] .

ورأى الصوفية فى هذا أمرا نكرا ، اذ كان التصوف فى زعمهم يقصد الى ادلال النفس وتذليلها وأماتتها حتى تؤهل للفناء فى الله . بل أدّعى بعض المجادلين أن اقبالا ينكر التصوف ، ويدعو الى محوه .

وزاد الصوفية ثورةً على اقبال أنه عمد الى امام من أئمتهم ، وشاعر من أعاظم شعرائهم ، « لسان الغيب حافظ الشيرازى » فحطّ من شأنه ، وغضّ من طريقته ، ونهى الناس عنه وحذرهم منه . كتب فى مقدمة

---

(١) ابخودمحكم گذارأندرحضورش مشونا پيد أندر بحرنورش

المنظومة أبياتا فى حافظ خلاصتها : [١]

« احذر حافظا أسير الصهباء ، فأن فى كأسه سمّ الفناء . ليس فى سوقه الا المدامة ، وقد شعّث كأسان على رأسه العمامة . ذلكم فقيه ملة المدمنين . وامام أمة المساكين . شاة علّمت الغناء ، والدلال والفتنة العمياء . هو أزكى من شاة اليونان ، ونغمة عوده حجاب الأذهان . فرّ من كأسه فأن فيها لأهل الفطن ، خدرا كحشيش أصحاب الحسن [٢] »

وحذف اقبال هذه الأبيات بعد الطبعة الأولى ووضع مكانها فصلا عنوانه « اصلاح الآداب الاسلامية » بيّن فيه المعنى الذى قصد اليه حين حذر من طريقة حافظ وشعره ولم يذكر حافظا . فبلغ ما أراد ، وكفى نفسه عداء المعجبين بحافظ المتعصبين له .

نبذ من رسائل اقبال الى المعترضين

وأنقل نبذا من رسائل اقبال الى المعترضين ، ورده على مآخذهم وشبهاتهم . لعل القارىء يجد فى هذه النبذ ايضاحا لآراء اقبال فى التصوف . وتمييزه بين نوعين منه : التصوف الاسلامى والتصوف العجمى ، والتفريق كذلك بين التوحيد ووحدة الوجود ، ولعله يجد فيه تفسيرا لما غمض على الناظرين من فلسفته ، وأجعل هذا تمهيدا للكلام فى فلسفة اقبال عامة ، وآرائه فى « أسرار خودى » خاصة .

---

(١) هوشيار از حافظ صهبا گسار — جامش از زهر أجل سرمايه دار
نيست غير از باده در بازار او — ازدوجام آشفته، شد دستار أو
آن فقيه ملت ميخوارگان — آن امام ملت بيچارگان
گوسفنداست ونوا آموخت است — فتنه وناز وادا آموخت است
ازبز يونان زمين زيرك تراست — پردهء عودش حجاب اكبر است
بگذر از جامش كه در ميناى خويش — چون مريدان حسن دارد حشيش

(٢) ـ يضرب اقبال الشاء مثلا للضعف ، فلذلك يسمى حافظا شاة . وشاة اليونان افلاطون . والحسن الصباح امام الفرقة التى عرفت باسم الحشاشين

قال فى رسالة الى السيد حسن نظامى مكتوبة فى الثلاثين من كانون الأول سنة ١٩١٥ .

« انى بفطرتى وتربيتى أنزع الى التصوف . وقد زادتنى فلسفة أوربا نزوعا اليه . فان فلسفة أوربا فى جملتها تتوجه الى وحدة الوجود ، ولكنّ تدبّر القرآن المجيد ، ومطالعة تاريخ الاسلام بامعان أشعرانى بغلطى . ومن أجل القرآن عدلت عن أفكارى الأولى وجاهدت ميلى الفطرى ، وحِدتُ عن طريقة آبائى .

ان الرهبانية ظهرت فى كل أمة ، وعملت لأبطال الشريعة والقانون . والاسلام فى حقيقته هو دعوة الى استنكار هذه الرهبانية.والتصوف الذى ظهر بين المسلمين — أعنى التصوف الايرانى — أخذ من رهبانية كل أمة ، وجهد أن يجذب اليه كل نحلة ، حتى القرمطية التى قصدت الى التحلل من الأحكام الشرعية لم تعدم نصيرا من الصوفية .

ان اعتراضك ، حتى اليوم ، لم يَعدُ مقدمة أسرار خودى . فلم يتناول المنظومة نفسها . وكيف أُعمل قلَمى ، ولست أدرى ما اعتراضك عليها؟ كيف أُعمِل قلمى فى هذا الصدد . انما اعترضت على ما حسبتَه غضًّا من قدر حافظ الشيرازى . ولن يستبين الحق فى هذا الأمر حتى يُوفَّى البحث حقه ...

ان حالة السكر (فى اصطلاح الصوفية) تنافر الاسلام وقوانين الحياة ، وحالة الصحو ، وهى الاسلام ، موافقةٌ قوانين الحياة . وانما قَصَد الرسول صلى الله عليه وسلم الى انشاء أمة صاحية (فى حالة الصحو) . ولهذا تجد فى صحابة رسول الله الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ولا تجد حافظا الشيرازى .

هذا بحث طويل تضيق عنه هذه الرسالة القصيرة . وسأفصّل هذا

ان شاء الله حين تتاح الفرصة • ولكن ذكر ابن عربى يذكرنى بمسألة أبينها هنا حتى لا يبقى فى فكرك لبس •

لا أنكر عظمة الشيخ وفضله ، بل أعده من كبـار فلاسفة المسلمين • ولا أرتاب فى اسلامه ، فانه يحتج على عقائده ، كقدم الأرواح ووحـدة الوجود ، بالقرآن على حسن نية • فآراؤه على صوابها أو غلطها قائمـة على تأويل القرآن • وأما أن تأويله غلط أو صواب عقلا ونقلا فمسـألة أخرى • وعندى أن تأويله غير صحيح • فأنا أعده مسلما مخلصا ولا أتّبعه فى مذاهبه •

وأصل المسألة أن الصوفية أخطأوا خطأ كبيرا فى فهم التوحيد ووحدة الوجود • ليس هذان الاصطلاحان مترادفين كما توهموا • فالأول مفهوم دينى • والثانى فلسفى محض • ليس التوحيد ضد الكثرة كما يظن بعض الصوفية بل هو ضد الشرك • وأما وحدة الوجـود فهى ضد الكثرة • وكانت نتيجة هذا الغلط أن عُدّ من الموحّدين طائفةٌ ذهبوا الى وحدة الوجود ــ أو التوحيد فى اصطلاح فلسفة أوربا الحاضرة ــ على حين أن المسألة التى ذهبوا اليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم •

ان تعليم الاسلام واضح بيّن • هو أن ذاتا واحــدة تستحق العبادة . وأنّ كل الكثرة التى تُرى فى العالم مخلوقة •••

ليست عقيدة وحــدة الوجود من تعليم القرآن • فانّ القرآن يبيّن المغايرة التامة بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود • »

— ٢ —

ويقول فى رسالة أخرى الى سراج الدين پال مؤرخة ١٠تموزسنة١٩١٦:

« الحق أن التماس معان باطنية فى قانون أمة هو مسخ لهذا القانون كما يُعلم من سيرة القرامطة• ولا يختار هذه الطريقة الا أمة فى فطرتها الخنوع والمذلة• وفى شعراء العجم جماعة فى طباعهم الميل الى الاباحة • وهذا الميل فى ايران

من قبل الاسلام ، وقد صده الاسلام حينا هذا الميل الطبعى ، ثم عاد فظهر حينما وجد فرصة ، فوضع للمسلمين أساس أدب يقوم على وحدة الوجود ، وقد افتن هؤلاء الشعراء فى ابطال شعائر الاسلام بأساليب عجيبة خداعة ، وأبانوا عن وجه مذموم فى كل أمر ممدوح فى الاسلام ، وأضرب الجهاد مثلا ، فقد التمس شعراء العجم معنى آخر فى هذه الشعيرة التى يراها الاسلام من ضرورات الحياة ، انظر فى هذه الرباعية :

« يسلك الغازى كل سبيل من أجل الشهادة ، ولا يدرى أن شهيد العشق أفضل منه ، كيف يستوى هذا وذاك يوم القيامة ، هذا قتيل العدو وذاك قتيل الحبيب » [1]

وهذا جميل فى الشعر ولكنه خدعة لأبطال الجهاد ،

واذا نظرت الى حافظ وكل شعراء ايران من هذه الوجهة ، بانت لك عجائب وغرائب » ،

وفى رسالة أخرى الى سراج الدين نفسه يقول اقبال :

كل شعر التصوف ظهر فى زمان ضعف المسلمين السياسى ، وكل أمة يصيبها ضعف كالذى أصاب المسلمين بعد غارات التتار ، تتبدل أنظارها [2] ويجمل الضعف فى أعينها ، وتركن الى ترك الدنيا ، وفى هذا الترك تخفى الأمم ضعفها وهزيمتها فى تنازع البقاء ، انظر الى مسلمى الهند ، فقد انتهى الأدب عندهم الى فن الرثاء فى لكهنئو ،

---

(١) غازى زپى شهادت اندر تگ وپوست
غافل كه شهيد عشق فاضل تر ازوست
در روز قيامت اين بآن كى ماند
اين كشته دشمن است واين كشته دوست

(٢) يقول اقبال فى ضرب الكليم . ان الامة ضعفت عن شريعة القرآن فحاولت ان تبدل القرآن بلائمها ، ولم تحاول ان تغير نفسها لتلائم القرآن
تبدلت فاجهد ان تبدل شرعة   فليس يطيق الظبى شرعة ضيغم

هذا طرَف ممّا أجاب به اقبال اعتراض المعترضين . ومن هؤلاء من قنعوا بقراءة مقدمة المنظومة أو الأبيات التى تضمنتها فى نقد حافظ . ولم يقرءوا المنظومة كلها فيتدبروا دعوة اقبال ، أو قرءوها ولم يرتقوا الى الجدال فيها

***

وآخرون من زعمـاء المسلمين فى الهنـد تلقوا دعوة اقبـال بالأكبار والأعجاب وقدَروا حاجة المسلمين اليها ، وأثرها فى أنفسهم . فأشـادوا بفلسفة اقبال وأثنوا عليه بما يستحق .

ومن هؤلاء الزعيم مولانا محمد على . قال بعد أن نشر اقبال أسرار خودى ورموزبى خودى : ان شعر اقبال يحدو المسلمين فى هـذا العصر الى النشأة الثانية .

شرعت أنا وأخي شوكت على فى قراءة أسرار خودى فرأينا ضربا من الشعر يفوق ماقال من قبل . وحق أنه بدالنا بأول الأمر . فاترابجانب شعره الأردى الذى يرمى بالشرر ، ولكنا حينما فرغنا من البـاب الأول الذى عرّف فيه موضوع فلسفته عرفنا أنه شعر يبعث الحياة فى الجماد ...

لقد رأيت أنه فى هذا الابداع جلا حقائق اسلامية لم أدركها الا بعد مشقة وعناء ...

ان الحياة فى نظر اقبال صحراء جرداء . وادراك المرء «ذاته» هو ادراك مقاصد الحياة ... لقد بيَّن اقبال رسالة الاسلام وسنته الأخلاقية . وأنحى على نظرية القومية والوطنية عند الغربيين التى تحد تعاون الناس . وترمى الأمم فى الفرقة والاختلاف .

وكتب مولانا أسلم جيراجبورى سنة ١٩١٩ :

مازال بعض الناس يعترضون على اقبال منذ نشر كتابه أسرار خودى .

اذ جعل أفلاطون اليونانى وحافظا الشيرازى فى فصيلة الغنم .

وليس حافظ الشيرازى عندهم شاعرا عظيما فحسب بل هو ولى مقدس

ولو لم يكتب اقبال عن حافظ ماكتب لكان خيرا له . لأنه عرض نفسه لطعن الطاعنين ، ولأن المسألة الأصلية التى تنفع الأمة حجبت فى غبار هذا

الجدال . كما فعل بيرزاده مظفر أحمد اذ نظم « راز بيخودى » ليردّ على اقبال ماقال عن أفلاطون وحافظ ، وأغفل الموضوع الأصلى .

الفصل الثانى

خلاصة اسرار خودى

أجمل فى هذا الفصل خلاصة آراء اقبال كما بيّنها فى هذه المنظومة وأكتفى بزهرات من هذه الرياض ، وقطرات من هذه الحياض .

أعرض على القارىء ما يعرّف بفلسفة اقبال وشعره معا ، شعره الذى يصوّر به الفلسفة ، ويعرض مباحثها فى معرض لم تألفه ، ولم يعهده الناس . ولا يروض الفلسفة للشعر ، ويطوّع الشعر للفلسفة الا اقبال وأمثاله . « وقليل ماهم »

— ١ —

المقدمة

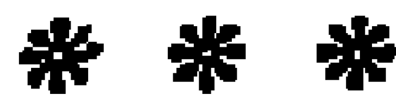
كان اقبال يشعر بأنه أتى العالم بمذهب جديد ، ورأى بِدع ، ان لم يكن اخترعه اختراعا ، فقد اخترع طرائقه وصوّره وجمع أجزاءه وألف أشتاته ، وأدرك صلة هذا المذهب بالانسان حياته ومماته ، وآحاده وجماعاته ، وبيّن صلته بالاسلام خاصة ، فأتى بالعجب ، واستولى على الأمَد .

ومن أجل هذا يعرب عن ثقته بنفسه ، وتأثير كلامه ، ويذكر طلوعه على العالم شمسا جديدة ، لا تعرف رسومَه ، ولا تألفها سماؤه وأرضه ، ويتحدث عن نفاذ بصره الى مكنون الحياة ، وامتداد عينه الى أسرار المستقبل :

يقول فى مطلع المنظومة :

قطع الصبحُ على الليل السفر — فهمى دمعى على خدّ الزهَر
غسل الدمع سُباتَ النرجس — وصحا العشب بمسرى نفسى
جرب الغارس قولى موقَدا — مِصرعا ألقى وسيفا حصدا

انـه حبٌ دمـوعي زرعـا ... نسج الروض وأتاني معـا
ذرة ، قد حازت الشمسَ يدي ... كم صباح فى فؤادى مُرصَد
طينتي من جام جمَ أنور [١] ... من جنين الدهر عنـدى خبر
صيد أفكارى ظبـاء لم ترُم ... لم تُسيَّب بعدُ من قيد العدم
زان بستانىَ عشب ما ظهـر ... وجنيت الورد فى جوف الشجر
محفـل الشـادين منى يرجف ... فى وتار الكون كفّى تعزف
صـامتٌ فى رباب الفطـرة ... ما وعى عنى جليسى نغمتى
اننى شمس قـريب المـولد ... حبّكا فى فلكٍ لم أعهـد
لم يَرُع ضوئى سرب الزَّهَر ... لم يترجرج زئبقى فى البصر
ما رأت رقص ضيائى الأبحر ... ماكسا الأطواد ثوبى الأحمر
ما لهذا الكون عنى تعهـد ... أنا من خـوف طلوعى أرعد
مزّق الظلمـة فجرى فظهر ... فبدا طلٌ جـديد فى الزهَر
اننى أرقب صبحـا متعلّمـا ... حبذا مَن حول نارى زمزما



أنا لحـن دون ضرب صعِدا ... أنا صوتٌ شاعرى يأتى غدا
كل سرٍ دون عصرى يختفى ... ما بهذا السوق يُشرى يوسفى [٢]
أنا فى يأس من الصحب القديم ... مُنصَل طورى ليغشاه كليم
بحر صحبى قطـرة لا تزخر ... فطرتى كاليمِ فيهـا صرصر
من وجود غير هذا لى غنـاء ... ولركب غير هـذا لى حُداء
كم تجلى شـاعر بعد الحِمام ... يوقظ الأعينَ حينـا وينـام
وجهه من ظلمـة الموت سفَر ... ونما من قبره مثـلَ الزهَر
كم بهـذا السهب مرت قافلة ... كخفاف النوق رهوا سابلة
غير أنى عاشق ، دينى النُواح ... ثورة المحشر منى فى الصياح

---

(١) كاس جمشيد فى اساطير الفرس كانت ترى فيها الا " . . .
(٢) اشارة الى قصة يوسف الصديق .

أنا لحـن كـلٌ عنّي الوتر | لا أبالي أنْ عـودي تكسّر
أبعِـد القطـرة عن سيل طمى | وليجنّ البحـر منه خِضرِما
لا تعي موجيَ هـذي الأنهر | لا يعي موجيَ الا أبحــر

* * *

ليصدقني القـارئ لقـد أردت أن أثبت هنـا ابيـاتا قليـلة تنطق باعتداد اقبال بنفســه وشعوره برسـالته ، فلم أدر ماذا آخذ وماذا أدع فكتبت هذه الأبيات كلها .

ولست في حاجة الى أن أفسّر للقـارىء هـذه الأبيـات لأدله على شعور اقبال بأنه أدرك أسرار الحيـاة ، وبصّر بما في ضمير الغيب ، وأنه رسالة الغد الآمل الى اليوم اليائس ، والمستقبل العزيز الى الحاضر الذليل

جلال الدين الرومي

يقول اقبال في مقدمة هذه المنظومة ان جلال الدين الرومي هو الذي أيقظه ونبّهه ودعاه الى أن يسلك هذه السبيل ويقصد هذا القصد ويشيع في الناس بيانه ويبلغهم رسالته . وهو يعترف لجلال الدين بالأمامة في مواضع كثيرة من كتبه . ولما نظم منظومته الخالدة جاويد نامه وقصّ فيها سفره في الأفلاك السبعة ، جعل جلال الدين دليله في هذا السفر .

يقول في مقدمة أسرار خودي :

صيّر الرومي طيني جـوهرا | من غباري شـاد كونا آخرا
ذرة تصعـد من صحـرائها | لتنـال الشمس في عليائهـا
انني في لجّـه موجٌ سرى | لأصيب الـدر فيـــه نيّرا

ويقول بعدُ انه بات شـاكيا نائحا فأخـذه النصَب والنوم فلاح له جلال الدين :

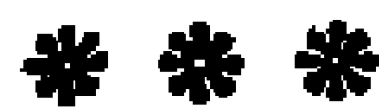
قال يامجنون بين العـاشقين — من حشـيا العشق فاجرع كل حين
شق فى العين حجـاب البصر — وأثر فى القلب هول المحشر
واجعلن الضحك ينبوع البكاء — واملأ القـلب دموعا من دماء
أنت كالكم صمـوت أبكم — انشرن كالورد ، ريحا يفغم
صعدن من كل عضو كالجرس — نوحك الصامت ـ فى كل نفس
أنت نار فأضيء للعـالمين — بلهيب منـك أذك الآخرين

الى أن يقول :

جـرس الـركب ! تنبـه لا تنم
واعـرف اللـذة فى نظـم النغم

وبهذا البيت ينتهى كلام جلال الدين كما حكاه اقبال . ويقول الشاعر بعده مبينا أثر هذا الكلام فى نفسه :

صرت نارا فى ثيـابى تسعر — صرت كالناى هيـاجا أضمر
ثرت من أوتار نفسى نغما — صغت من حسن بيانى أرما
فرفعت السـتر عـن سر خـودى
مظهر الاعجـاز من أمر خودى



رأى القارىء من مقـدمة أسرار خودى المنثورة ومن جدال اقبـال ومخالفيه أنه خالف الصوفية فى وحـدة الوجود وانكار الذات ، وسمى التصوف المتضمن هاتين العقيدتين تصوفا غير اسلامى . ويراه هنا يعترف بأمامة الرومى ، ويقر له بالفضل بما أوحى اليه هذه الطريقة . وقد كرر هذا فى مواضع من دواوينه الأخرى .

ولا يتسع المجال هنا لبيان مابين جلال الدين واقبال من التشـابه ،

واسباب اعجاب أقبال بجلال الدين واكباره اياه . ولعلى أبيّن هذا بعد الفراغ من بيان فلسفة أقبال .

اقبال والاسلام

ويقول فى المقدمة بعد حديث جلال الدين الرومى :

كان كونى هيكلا لم يكمّل — كان عَطَلا سَقَطا لم يتقبل
مِبرد العشــق برالى رجــلا — كيفَ هذا الكونوالكَمّ جلا
فرأيت النبض فى جسم ذكاه — وبعرقالبدر تَسيارَ الدماء [1]
فاض للانسان دمعى فى الظّلم — فشققتُ السرَّ عنعيش الأمم
فبدا لى سر تقــويم الحيــاة — وشببتُ النفس فى نار الحياة

فى هذه الأبيات يذكر أنه بكى على الانســان وأطال التفكير فى أمره حتى اهتدى الى سر الحياة . وفلسفة أقبال فى عمومها انسانية ، ومذهب الذاتية لا يخص واحدا ولا جماعة ولا أمة .

ويقول أقبال بعد هذه الأبيات :

أنا مَن فى ظلمــة الليل أنار — فى طريق الملة البيضــا غبار
أمّــة دوّت بآفــاق الورى — لحنها فى القلب نارا قد سرى
ذرّة ألقتْ وشمســا حَصدت
ألف رومىٍّ وعَطــار جنت [2]

وهنا يذكر الأمة الاسلامية ويقول انه غبــار أقدامها . وحب أقبــال الاســلام ، واعجابه بتاريخ المسلمين ، ورؤيته فى العرب الأولين المثــلَ الأعلى فى نضج « الذاتية » تلقى قارىء شعره حيثما قلّب صفحـــات دواوينه . وهذه الأمة خصّها أقبال بتطبيق فلسفته . فهى فلسفة انسانية تجد موضوعها ومثّلها وغايتها فى أمة الاسلام .

وسأعود الى هذا بعد ان شاء الله .

---

(١) رأى دورة الدم فى عروق القمر .
(٢) جلال الدين الرومى وفريد الدين العطار .

— ب —

فصول اسرار خودی

هذه أمهات الفصول فى ديوان أسرار خودى وتكاد هذه العناوين كلها تكتب بلفظها العربى فى تركيب فارسى :

١ ـ أصل نظام العالم من الذاتية ، واستمرار أعيان الوجود موقوف على استحكام الذاتية .

٢ ـ حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها

٣ ـ تستحكم الذاتية بالمحبة والعشق

٤ ـ ضعف الذاتية بالسؤال

٥ ـ اذا استحكمت الذاتية بالمحبة والعشق سخّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .

٦ ـ حكاية فى معنى أن مسألة نفى الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة لتضعف أخلاق الأمم الغالبة من طريق خفية .

٧ ـ فى معنى أن أفلاطون اليونانى ـ الذى أثر كثيرا فى أفكار الأمم الاسلامية وآدابها ـ ذهب مذهب « الغنَم » . والاحتراز من خيالاته واجب .

٨ ـ حقيقة اصلاح الشعر والآداب الاسلامية .

٩ ـ تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى الاطاعة ، والثانية ضبط النفس ، والثالثة النيابة الألهية. ويتفنن أقبال فى البيان فى هذا الفصل التاسع فيقص قصصا حقيقية أو خيالية لتصوير مذهبه منها :

(ا) ــ حكاية شــاب ذهب الى الشيخ على الهجويرى شــاكيا جور أعدائه (وقد بيّن له الشيخ أن العدوّ له عليه فضــل بما ينبّه قواه، ويقوّى ذاته)

(ب) ــ حكاية الطائر الذى أنهكه العطش (وجد ماســة فلم يستطع التقاطها ثم وجد قطرة ماء فالتقطها، الماسة مثّل الذات القوية، وقطرة الماء مثل الذات الضعيفة)

(ج) ــ حكاية الشيخ والبرهمن، ومحاورة نهر الجَنجا وجبل هِمالا فى معنى أن تسلسل حياة الأمة من الاستمساك بسننها.

١٠ ــ فى بيان أن مقصد حياة المسلم اعلاء كلمة الله وأن الجهاد ان كان سببه «جوع الأرض» فهو حرام فى الاسلام.

١١ ــ نصيحة ميرنجات النقشبندى المسمّى الأب الصحــراوى التى كتبها لمسلمى الهند.

١٢ ــ الوقت سيف.

١٣ ــ دعاء (يختم به المنظومة)

نظرة عاجلة فى هذه الفصول

— ١ —

الذاتيــة

يبدأ المنظــومة بالكلام عن الذاتية، أنهــا أصــــل الكون. يقول: هيكل الكون من آثارها، وكل ماترى من أسرارها، انها حينما أيقظت نفسها أظهرت عالم الفكر. مائة عالم خفية فى ذاتها. وغيرهامثبَت بأثباتها. بذرت فى العالم بذر الخصومة، اذ حسبت نفسها غيرها ــ يعنى أنهــا حقيقة واحدة اتخذت ذوات مختلفة، فتباينت وتنافست ــ الى أن يقول: تدمى مائة روضة لأجل وردة، وتثير ألف نوحة لأجل نغمة، وتمنح

فلكا واحدا مائة هلال ، وتكتب من أجل كلمة واحدة مائة مقال . وعلة هذا الاسراف وهذه القسوة ، خَلقُ الجمال المعنوى وتكميله — يعنى أن التكمل يقتضى فنـاء أشكال ، وعدم صوُر ، وامتحاء أطوار . فمـائة روضة تنشأ لتكمل فيها وردة . وهلمّ جرا .

وتصوير صعوبة التطور وعسر التكمـل ، سبق اليـه بعض شـعراء الصوفية مثل سنائى الغزنوى .

ثم يقول أقبال : وتراها من أجل عملها ، عاملا ومعمولا ، ووسيلةوغاية . تنبعث وتثور وتطير وتضئ وتختفى وتحترق وتقتل وتموت وتنبت [1]

وظاهر أن الشاعر يريد قوة الحيـاة التى تتجلى فى مظاهر مختلفـة ، وتتداولها أحوال شتى ، ولكنها الحياة المتعينة المتشخصـــة فى الذوات الكثيرة .

ثم يقول :

حياة العالم من قوة الذات ، فالحياة على قدر مافيها من هـذه القـوة فالقطرة حين تقوى ذاتها تصير دُرّة . والجبل اذا غفـل عن ذاته انقلب سهلا وطغى عليه البحر . ويضرب الشاعر فى هذا المعنى أمثالا شعرية عدة .

انما أقصد هنا الى تبيين فلسفة أقبال ، وقد جعلت الكلام فى منظومة أسرار خودى وسيلة الى هذا التبيين . فلا حرج أن أترك هذه المنظومة حينا الى غيرها من دواوين أقبال . قد بث الشاعر فكرة الذاتية فى شعره

---

(١) نظم اقبال كل هذه الافعال فى بيت واحد .

كله . ذكرها أحيانا مجملة ظاهرة وخفية وصريحة ومكنية ، وأفاض أحيانا فى الأبانة عنها وموالاة وصفها والتمثيل لها . ومن مواضع الافاضة منظومته « ساقى نامه » من ديوانه الذى سماه بال جبريل (جناح جبريل) واليكم نبذة من كلامه عن الذاتية فى ساقى نامه :

تكلم عن الحياة الثائرة ، والزمان السائر ، وعن الأمم والآحاد ، فى هذا الجهاد ثم قال :

« ما هذا النفس الحى ؟ سيف . ما مسن هذا السيف ؟ الذاتية . ما الذاتية ؟ سر الحياة الباطن . ما الذاتية ؟ يقظة الكائنات . أنها ثملة بالجلوة ، ومتغرمة بالخلوة ، أنها بحر فى قطرة ... أنها ظاهرة فيك وفى ، وهى بريئة منى ومنك (يعنى ليست مقيدة بكون محدود) . ماضيها الأزل ، وآتيها الأبد . ليس لها ماض ولا آت يحد ...

تغير وسائل التحرى ، وتبدل منظرها بين حين وحين . والصخرة الثقيلة خفيفة فى يدها ، والجبال رمال من ضربها.والسفر مبدؤها ومنتهاها، وهو السر من تقويمها . هى ضياء فى القمر ، وهى شرار فى الحجر ... وهى فى هذا الكفاح منذ الأزل ، وقد صورت كذلك فى صورة الانسان.

ان مستقر الذاتية قلبك ، كما يحوى الفلك انسان العين. وسم هذه الذاتية العيش الذليل ، والعزة ماؤها السلسبيل . »

أردت أن أعرض على القارىء صورا للذاتية فى شعر أقبال ليتأمل فيها . وما أردت أن أحجبه عن الشاعر بكلامى وبيانى .

— ٢ —

المقاصد والآمال

ويقول فى الفصل الثانى :

ان هذه الذاتية تحيا بخلق المقاصد والجد فى المسير اليها ، وعلى قدر

عظم مقاصدها تَعظم ، وعلى قدر المشقّة التى تحتملها تَقوى .

والأمل فى شعر اقبال كله ، هو الحياة ، والجهاد الدائب هو حافظ هذه الحياة . وان قارىء اقبال ليروعه اعظـام اقبال الأمل ، وتصـويره اباه واشادته بالعمل الدائب والجهد المستمر ، بل يرى اقبال أن الجهاد فى سبيل المقصد أعظم لذة من بلوغه :

طوبى لمن لا يزال فى أثر المحمل . أى لذة فى الاضطراب دون وصول [1]

ويقول فى هذا الفصل من « أسرار خودى » :

انما يُبقى الحيـاةَ المقصــد　　　جرسٌ فى ركبها ما تَقصِـد [2]
أصلهــا فى أمــل مُستترٌ　　　سرها فى السعى منها يُضمَر
أحى فى قلبك هــذا الأملا　　　أو يَحُلْ طينك تربا مهمــلا
فحيـاة القلب من نار الرجاء　　　ماسوى الحق لدى القلب هباء
فـاذا عيَّ بتخــليق المنى　　　هيض سِقْطا وعن الطير ونى
ويُميت الحيَّ فقدانُ الرجاء　　　يُطفىء الشعلة فقدانُ الغذاء

بل يرى أن العقل نشأ من الأمل :

رأس مال فى الحيـاة الأمــل　　　وكذاك العقــل منه يَنسـل
كل فكر وخيال واعتبــار　　　كل حس وشـعور وادّكار
هى آلات الحيــاة الجاهدة　　　حين تمضى فى وغاها صامدة

---

(1) خوشا كسى كه بدنبال محمل است هنوز　　طپيدن ورسيدن چه لذتى دارد
(2) يعنى ان المقصد كجرس القافلة يؤذنها بالسير كل حين .

المحبة والعشق

العشق ، عشق الأمل وعشق المثل الأعلى ، يشعل الذاتية ويظهر مافيها من قوى . ومَثَل المسلم العاشق هو الرسول صلوات الله عليه .

واذا استحكم العشق لم يحل بين الأنسان وأمله عقبة ولا مشقة ، ولم تأخذه فيه رغبة ولا رهبة وسخّر الانسان قوى العالم .

زائد بالحب فى الذات رُواء
وحيـــاة واشتعـــال وبقـــاء
مشتعل بالحب منها الجوهر   يتجـلى من قواها المضمَر
لا يهاب العشقُ فى السيف المضاء
ليس من مـــاء وترب وهـــــواء
هو فى العـــالم حرب وسلام   وهو ماء لحيـــاة وحســـــام

***

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول فى العشق ، عند الصوفية وعند اقبال ، وفى الموازنة بين العشق والعقل وبين الفكر والذكر .

وقد صوّر اقبال هـــذا صورا كثيرة ، ولم يمل من ذكره وتكراره . وبجده القارىء فى هذه المنظومة « أسرار خودى » وغيرها . فليرجع الى ترجمة هذه المنظومة ، وليرجع الى دبوانيه رسالة المشرق وضرب الكليم ومقدمتيهما [1]

---

(١) ترجى نشر ترجمة اسرار خودي ورموز بيخودى بعد هذا الكتاب .
وقد نشر من قبل رسالة المشرق وضرب الكليم .

ولا تخلو فصول الكتاب الآتية من حديث فى هذا الشأن .

— ٤ —

الذات تضعف بالسؤال

الثقة بالنفس ، والاعتداد بها ، والاعتماد عليها ، والاستغناء بها ، بقوى الذات . والشك فيها ، والالتجاء بها الى الناس ، وحملها عليهم ، يضعفها.

يبدأ أقبال هذا الفصل بقوله يخاطب المسلم :

أيها الجابى من الليث الخراج ... صرتَ كالثعلب خَبًّا باحتياج
ذلك الأعواز أصل العلل ... كل أدوائك من ذا المُعضِل
من كنوز الدهر أخرج ماتريد ... وخذ الصهباء من دن الوجود [1]

ويضرب مثلا عمر رضى الله عنه اذ سقطت دِرّته من يده وهو راكب ؛ فنزل ليأخذها ، وأنفَ أن يسأل أحد الرجّالة أن يناوله دِرّته .

ثم يقول : « لا تبغ رزقك من نعمة غيرك ، ولا تستجد ماء ولو من عين الشمس . واستعن الله وجاهد الأيام ، ولا تُرق ماء وجه الملة البيضاء

طوبى لمن يحتمل الضر من الحَرور والظمأ ، ولا يسأل الخضر كأسا من ماء الحياة . »

— ٦ —

نفى الذات من اختراع الأمم المغلوبة

يتحدث اقبال فى هذا الفصل عن الاقوام المغلوبة كيف خدعت الأقوام الغالبة عن نفسها وزينت لها « نفى الذات »

---

(١) يعنى اطلب رزقك فى أرض الله لا تستجد أحدا ولا تعول على غيرك.

ويضرب مثلا قطيعا من الغنم تسلطت عليه الأسود ، تصول عليهـــا وتنال منها ماشاءت كلما شاءت .

ففكر كبش فى أمر جماعته فبدا له أن يُضعف فى الأسود نزعة التغلب ، والصولة ، ويصرفها عن الاعتـــداد بالقوة . فادعى أنه نبىٌ مرســـل الى الأسود . ودعاها الى الزهد والاستكانة وانكار الذات . ونهاها عن أكل اللحم وعلمها أن الجنة للضعفـــــاء ، وأن القوة خسران مبين . وقال : « ياذابح الشاة اذبح نفسك ، واغفل عنها ان تكن عاقلا »

أطبق عينيك وأذنيك وشفتيك ليصعد فكرك فوق الفلك [1] . ان هذه الدنيا مرعى العدم ، فإياك أن تركن الى هذا الوهم .

ويصور الشاعر أثر هذه الدعوة فى الأسود بهذه الأبيات :

كانت الأسد جهادا مَلّتِ وتمنت منـــــه عيشَ الدعة
عن هوًى أصغت الى النُصح المنيم
ودهاها الكبش بالســـحر العظيم

جَوهر الآســاد أضحى خزفا حين أضحى قوتهنُ العلَفــا
ذهب العشب بنــاب عَسِـر أطفــأ الأعينَ ذات الشرَر
هجر الصـــدرَ فؤاد مُقدمُ فاذا المـرآة فيــه تُظــلم
وذوى فى القلب شوق العمل وجنــونُ السعى ملءَ الأمل
ذهب الأقدام والعـــزم الأمرّ والسنا والعز والمجــد الأغر
بُرثُن الفولاذ فيها قد وهن واستكان القلب فى قبر البدن
ونمـــا الخوف بنقص المُنّــة قطّع الخوف جذور النخوة
كــل داء فى سقوط الهمــة انه العجــز وضعف الفطـــرة
نامت الأســد بســحر الغنم سمَّت العجز ارتقــاء الفَهَم

(١) اشارة الى حكمه شرقيه بمثلها ثلاثة قرود يضع أحدها يديه على عينيه والثانى يضعهما على أذنيه والثالث على فمه

مذهب افلاطون وأثره فى الآداب الاسلامية

ينكر أقبال ، فى كثير من أقواله ، على أفلاطون مذهبه فى عالم المـادة وعالم المثال ويبين سوء أثره فى الحياة ، ويقول انه يدعو الناس أن يهجروا عالم الحس الى عالم الخيال ، وأن يفروا من هذه الحياة . ويرى أقبال أن عالم المادة كائن لا ريب فيه ، وأن على الأنســـان أن يقهره ويسخره ، ويجوزه الى مقاصده ، وأن فى العمل لتسخير هذا العـــالم قوة النفس الانسانية وارتقاءها .

يبدأ أقبال هذا الفصل من أسرار خودى بقوله :

راهبُ الماضين أفلاط الحكيم — «مذهبَ الشاء» تولّى فى القديم[1]
طرفه فى ظلمة المعقول ضـل — فى حزون الكون قد أعيا وكلّ
فكره فى «غير محسوس» فتن — صد عن كف وعين وأذن[2]
قال : فى الموت بدا سر الحياة — وخمودُ الشمع يُعلى من سناه

ويقول فى هذا الفصل أيضا :

عـالم الأمـكان للحىّ وطن — عالم «الأعيان» للميْت سكن
مشفق راهبنـا لا يتقـدم — فى وغى العالَم نِكْسٌ مُحجم
قلبـه يعشـو لنـار خامده — صوّرت يمناه دنيـا هاجـده

ولا يتسع المجال هنـا للقول فى مذهب أفلاطون وتطوره الى مذهب أفلوطين من بعد ، وأثر هذا فى المسيحية وفى بعض مذاهب الصوفية .

وحسبنا أن نقول ان اقبالا يدعو الى ادراك الذات وتقويتهـــا . والى العمل الدائب ، والجهاد الذى لا يفتر . ويرى أن الحياة فى العمل والجهاد . والموتَ فى الاستكانة والسكون . ويرى أن عالم المادة كائن لا خيــال ،

---

(١) يعنى مذهب الضأن الذى بينه فى الفصل الماضى فى قصة الاسود والغنم.

(٢) يعنى العقل ما يلمس ويرى ويسمع .

وأن عمل الانسان تسخيرُ هذا العالم ، وفى الجهاد لتسخيره قوته وكماله.

وهذا مذهب يخالف مذهب أفلاطون والمذاهب التى تفرعت منـه فى جملتها وتفصيلها ، ومذاهب فلاسفة الهند . ويخالف التصوفغيرالاسلامى أو التصوف العجمى كما يقول أقبال .

— ٨ —

حقيقة الشعر واصلاح الآداب الاسلامية

بيّنت آنفا أن أقبـالا كتب أبياتا عن حافظ الشيرازى يذم مذهبـه ، ويحذر الناس منه ، وأنه حذف هذه الأبيات بعد الطبعة الأولى ، وأثبتَ مكانها أبياتا فى أصلاح الآداب الاسلامية .

استهل الشاعر هذا الفصل ببيان الأمل وأثره فى الحياة : صوّر هـذا تصويرا بليغا جميلا كدأبه حين يتحدث عن الأمل فى شعره .

ثم قال أننا نأمل ماهو حَسن وجميل ، بل الحسن يخلق الأمل :

كل خير وحَسَنٍ وجميـل   هو فى صحرائنا خير دليـل
يَطبع القلبَ على أشـكاله   خالقـا فى القـلب من آماله
يخلق الحسنُ ربيعَ الأمـل   وجهـه يَبْدى بديعَ الأمـل

ثم يقول ان الشاعر يدرك الجمال ويجلوه للناس ، ويزيد الجميلَ جمالا ، ويزيد الفطرة بهجة ، ويدعو الأمة الى الجميل ويحدوها اليه

فأن لم يكن فى الشاعر هذا الأدراك ، ولم تشعْ فى شعره الدعوة الى الخير والجمال والتغنى به وحفز الهمم اليه ، ساء أثره فى أمته ، وحـداها الى الهلاك

يلبس النفعَ ثيـاب الضرر … ويرى الموت جميل المنظـر
شـدوُه فينـا يزيد الكللا … كأســه فينــا تزيد المللا
سَيلُ برق ماحوى نيسـانه … آلُ لون وشـذًى بستانه [1]
حُسنه بالصـدق لا يعترف … بحـره ما فيه الا الصـَّدف
نوّمت ألحـانه يقظتنـا … أطفـأت أنفاسـه وقدتنـا
بلبـل للقلب سمٌ نغمتـه … ضِغث ورد فيه يثوى أرقمه

ويمضي فى بيان أثر هذا الشاعر فى أمته ، الى أن يقول :

خسـة فى ذلة فى شـقوة

يائس مستسـلم للخيبـة

نوحه رُوحك منه فى سقام … قد حمى أصحابه طِيبَ المنام
ويل عشق قد ذكا فى الحرَم … ناره باخت ببيت الصـنم

ولا شـك أنه يَعنى بهـذا شعراء اللهو والمجـون ، وشعراء اليأس والتشاؤم ، وشعراء العزلة والخلوة ؛ وشعراء الفناء والسكر من الصوفية. وهى الأبيات التى كتبها مكان أبيات ذكر فيها حافظا الشيرازى كما قدمت.

وينتهى فى هذا الفصل الى دعوته دعوة الحياة والقوة والأمل والعمل . والهمة والاقدام ، يقول :

صير فى القول! ان تبغ النجاة … فاجعلن معياره شرع الحيـاة
نيّر الفـكر يقـود العمـلا … مثـل رعد بعد برق جلجـلا
بث فكرا صـالحا فى الأدب … ارجعن ياصـاح نحو العرب
وسُليمى العرب ياصاح اعشقِ … أطلعن صبح الحجاز المشرق
فى ربيع الهند سرّحت البصر … وبروض العُجم جمّعت الزهَر
يمّم البيد ؛ اشربن من حرّها … وعتيق الراح خـذ من تمرها
أسلِمن رأسك يوما صدرها … وألقِين فى حـرّها صرصرها
كم وطئت الورد فى طول المدى … غاسلاً كالورد خـدا بالندى

---

(١) بستانه سراب من اللون والريح. الآل السراب . ونيسان (ابريل) من شهور الربيع .

فعلى رمل الصحارى المضرَم أقدِم النفس ، وغُص فى زمزم
فألام العش بين الظلل وألام النوح مثل البلبل ؟
ابن عشا حيث لا تبنى الأنوق تختفى فيه رعود وبروق
لترى أهلا لاعصار الحياة
وتذيب النفس فى نار الحياة

— ٩ —

مراحل تربية الذات

لتربية الذات مراحل ثلاث : الطاعة ، وضبط النفس، والنيابة الالاهية ، فأما الطاعة فيضرب الشاعر فيها الجمل مثلا ، يسير بأثقاله صابرا فى غير ضوضاء . ويقول ان الطاعة تجعل فى الجبر اختيارا ، وأن الانسان الحر يسخر هذا العالم ولكن يقيد نفسه بالشريعة .

بامتثال الأمر يعلو من سفل وهوى الطاغى وان كان الجبل
سخر الأفلاك فى همته وثوى فى القيد من شرعته
قد سرى النجم يؤم المنزلا طوع قانون له قد ذللا

***

وأما ضبط النفس فيقول فيه اقبال مشبها النفس بالجمل أيضا :

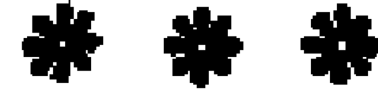
جَمل نفسك تربو بالعلف فى أباء وعناد وصلف
فكن الحر وقدها بزمام من حضيض تبلغن أعلى مقام

ويقول : ان الذى لا يحكم فى نفسه حرى أن يحكم عليه غيره .

ويرى أن ضبط النفس لا يكون الا بنفى الخوف والشهوات .

وان التوحيد المطلق ينفى عن النفس الاستكانة للمخاوف والمطامع .

من يمسك بعصا من «لا الاه» طلسم الخوف تحطمه يداه
كل من بالحق أحيا نفسه ليس للباطل يحنى رأسه



وأما المرحلة الثالثة من مراحل تربية الذات ، وهى النيابة الالاهية ، فهى مرحلة يكون الانسان فيها مسيطرا على العالم ، مسخرا قوى الكون ، نافخا الحياة فى كل شيء ، مجددا شباب كل هرم . يهب الحياة بأعجاز العمل ، ويجدد مقاييس الأعمال ؛ ويرد العالم الى الأخاء والسلام.

هذا الانسان الذى يذكر القارىء بالانسان الأعلى فى تعليم نطشه الفيلسوف الألمانى وبالانسان الكامل الذى تحدث عنه بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى ، ذكره اقبال فى مواضع كثيرة من شعره بوصف الرجل المؤمن « مرد مؤمن » وهو فى العالم أمل وعمل ، واصلاح وعمران؛ وسلام ووئام ، لا تعجزه عقبة ولا تبعد عليه شقة .

وان الفطرة لتكد فكرها ، حتى تنظم مثل هذا الانسان فى الحين بعد الحين .

يقول اقبال فى هذا الفصل :

فطرة عليا تبغى مظهرا تبتغى فى الكون خلقا آخرا
تنجلى من فكره مثل الزهر غير هذا الكون أكوان أخر
تنضج الفطرة بالضرم يخرج الأصنام من بيت الحرم
رن عود القلب من مضرابه يقظ بالحق نومان به
باعث فى الشيب ألحان الشباب ناشر فى الكون ألوان الشباب
هو فى الناس بشير ونذير هو جندى وراع وأمير

محضر من تحته طرف الزمان حينما يمسك منه بالعنان

فسر الدنيا بتفسير جديد عبر الرؤيا بتعبير جديد

الى أن يقول مخاطبا هذا الانسان المرجو :

ايه يا فارس طرف الزمن ايه يانورا بعين الممكن

قم فسكن من ضجيج الأمم واملأ الآذان حلو النغم
جد دن في الناس قانون الاخاء وأدرها كأس حب وصفاء
أرجعن في الأرض أيام الوئام أبلغ الناس رسالات السلام
لبنى الانسان أنت الأمل أنت من ركب الحياة المنزل
أذبلت كف الخريف الشجرا فاغد في الروض ربيعا نضرا

***

ويمضى الشاعر فيقص قصة الرجل الذى شكا الى الشيخ على الهجويرى[1] احاطة الأعداء به ، وخوفه بأسهم ، فأجابه الشيخ مبينا فضل العدو عليه بما يثير قواه الكامنة . ونصحه بنفى الخوف من نفسه ، واحكام همته وعزمه:

يوقظ الخصم قواك الهامدة مثل ما تحيى الموات الراعدة
قوة العزم تذيب الحجرا ما يبالى السيل صخرا انجرى
تشحذ العزم عقاب السبل[2] امتحان العزم قطع المنزل
ما غناء العيش مثل النعم ؟ ما حياة دون عزم محكم

وكذلك يقص اقبال قصة الطائر الظمآن الذى حاول التقاط ماسة فلم يستطع ، ووجد قطرة ماء فالتقطها ، يضرب الماسة مثلا للذات الناضجة المحكمة ، والقطرة مثلا للذات النيئة الضعيفة .

ثم يقص قصة الماس والفحم مثلا للذات القوية والذات الضعيفة كذلك .

---

(١) احد كبار الصوفية له كتاب بالفارسية اسمه كشف المحجوب . ومزاره فى لاهور مقصد الزائرين من ارجاء الهند .

(٢) العقاب جمع عقبة .

وينتقل الى قصة أخرى فيها شكوى ناسك هندى الى شيخ مسلم أنه فكر فى أقطار الأرض والسماء ولم يهتد الى ما يطمئن اليــه ، وتنصح الشيخ اياه بأن ينزل الى الأزرق متنكرا فى نفســه وعيشــه ويدع آفاق الســماء . ويبيّن له الشيخ ان فى التمســك بالسنن ، ولو كانت سنن الكفار ، قوة للأمة واجتماعا .

ثم يضرب مثــلا محـــاورة بين جبــل هِمــالة ونهــر جَنَجـا ، ويقول على لسان النهر للجبل : ماجدوى الوقار والرفعة وأنت محروم من السير . انما الحياة سير متصل ووجود الموج فى تحركه :

صاغك الله لجيتــا للســماء   وحمَى رجلك سَيرا فى الفضاء
قيِّــدت رجلك عن سير فما   هيئة فيك ورأس قد سما ؟
انمــا العيش مسـير وصِلا   وحيــاة الموج أن ينتقـــلا

فأجابه الجبل :

ان هذا السير فيه الحَين لك   من يَزل عن نفسه يوما هَلَك
انمــا العيش نموٌ فى المكان   وبروض «الذات» قطف الأقحوان
أنت تفنى فى خضـمٍ خِضرم   وقِلالى مســجد للأنجــم
وبعينى ضــــاء سرُّ الفلك   وبســـمعى طــيران الملك
صخِّر قلبى، وناري فى الصخر   ليس للمــاء الى نارى مَمر

مقصد حياة المسلم اعلاء كلمة الله . والجهاد للاستيلاء على الارض حرام

لا تظهر الصلة بين هذا الفصل والفصول الســـابقة لطول الاستطراد وكثرة الأمثال . فليذكر القارىء ان هذا الاستطراد وذاك التمثيل عقب الكلام فى النيابة الآلهية . وقد وصف الشاعر نائب الحق بأنه خليفة الله فى الأرض ، الى أوصاف أخرى كثيرة . فلما بلغ الغاية من البيان والتصوير

رجع يبين أن هذا السلطان الذى يناله.المسلم الحق ينبغى أن يكون لاعلاء الحق لا لفتح البلاد وقهر العباد .

يقول اقبال أول هذا الفصل :

انما المسلم بالحب قهر ... مسلم لا حب فيه قد كفر
غض للحق ، وللحق نظر ... وله فى الحق نوم وسهر

فى ربى التوحيد أرسى العمدا
وعلى الناس جميعا شهدا

وعليه يشهد الداعى الأمين
شاهد" أصدق كل الشاهدين

الى أن يقول ان الحرب ان أردت بها صلاح الناس فهى خير . وان رمت بها مالا أوجاها فهى شر .

خير" الحرب اذا رمت الالاه ... شر" الحرب اذا رمت سواه
فاذا لم يعل حقا سيفنا ... اكتسى بالحرب عارا جندنا

***

ثم يقص قصة الشيخ ميانمير أحد كبار الصوفية ، اذ زاره أحد سلاطين الهند . وكان السلطان مولعا بالحرب والفتح . وبينما السلطان يلتمس من الشيخ أن يدعو له بالنصر ، تقدم أحد المريدين الى الشيخ بدرهم قائلا : كسبت هذا بكدى . وألتمس من الشيخ أن يقبله منى . فقال الشيخ للمريد : أعط هذا الدرهم سلطاننا . فهو أفقر الفقراء ، وأحرص الناس على الاستجداء . كم أخرب بلادا وقتل عبادا ليشبع . قد بطش جوعه بالخلق . وأهلك الحرث والنسل .

نصيحة ميرنجات النقشبندى لمسلمى الهند

لا يميز القارىء فى هذا الفصل كلام ميرنجات من كلام اقبال . ولعلها كلمة موجزة أثِرت عن الشيخ فبنى عليها اقبال هذا الفصل الرائع فكرا وشعرا .

يقول اقبال فى هذا الفصل :

أن سرّ الحيــاة أن يغوص الانسان فى نفسه ثم يبرز منها كما تغوص القطرة فى البحر فتصير لؤلؤة ، وأن يتجمع الشرار تحت الرماد فيصــبر شعلة تبهر الأبصار ، وأن الحياة أن تجعل نفسك حرَما لنفسك ، وتبرأ من الطواف حول غيرك .

هذه المعانى كررها اقبال كثيرا فى شعره . هو يرى أن تتقوّى الذات ، ويرى أن قوتها بأن تعرف نفسها ، وتجمع قواها . وقــد ضرب مثــلا باختفاء القطــرة فى البحر ، والشرار تحت الرماد ، قبل أن تصير القطــرة لؤلؤة ، والشرار شعلة .

ثم يقول :

طِرْ وحرّر نفسك من جذب التراب ، واحفظها من الهُوِىّ الى الأرض
ثم ينقل عن جلال الدين الرومى قوله :

ان العلم اذا اتصل بالجسم فهو عدوّ ، واذا اتصل بالروح فهو صديق.

ويستطرد الى القصة المعروفة فى سيرة جلال الدين ، فصته هووشمس الدين التبريزى ، اذ جادله شمس الدين فى جَدوى الفلسفة والعــلوم التى كان يتعلمها جلال الدين . واشتد الجدال بينهما كلٌ يفند صاحبه .

فهاج شمس الدين وألقى نظرات على كتب جلال فاذا هي تحترق .

وتبع جلالُ الدين شمس الدين فانقلب صوفيا اماما ، وكتب كتابه الخالد « المثنوى » وديوانه الرائع الذى نسبه الى صاحبه فسمّاه ديوان شمس تبريز .

ثم يمضى اقبال بعد القصة قائلا :

انما يكمل علم المسلم بحرقة القلب ، وان معنى الاسلام ترك ما بأفل. ان ابراهيم حينما ترك الآفلين ، لم تحرقه النار [1] .

اطلب ماء الحياة من بريق الخنجر ، ومن فم التنين ماء الكوثر ، ولا تبغ حرقة العشق فى علم العصر . لا تطلب لذة الحق من كأس هذا الكافر .

ان هذا العلم هو الحجاب الأكبر ، يصنع الأصنام ويبيعها ويعبدها . وهو فى قيد الظواهر ، لم يستطع الخلاص من حدود الحس . وقد عثر فى طريق الحياة ، ووضع خنجره على حلقه . ان فيه نارا ولكنها باردة كالشقائق [2] .

الى أن يقول فى اهمال المسلم نفسه ، وتقليده غيره :

ان محفِل المسلم احترق بسراج غيره ، ومسجده اشتعل من شرار الدير . قد أجفل من سواد الكعبة كالظبى ، فمزقت جنبه أسهم الصيّاد . ان كعبتنا عامرة بأصنامنا ، وان الكفر ليضحك من اسلامنا . وان شيخنا

---

(١) اشارة الى قصة ابراهيم حين نظر الى كوكب والقمر والشمس فوجدها كلها تأفل . فقال « لا أحب الآفلين » وآمن بالله الواحد .

(٢) يعنى شقائق النعمان ، فيها حمرة النار لا حرها .

قامر بالاسلام فى عشق الأصنام ، واتخذ خيط مسبحته من الزنّار . هو فى سفر دائم مع مريديه ، وفى غفلة عن حاجات أمّته . الوعاظ والصوفية عبدوا المناصب ، وأضاعوا حرمة الملة البيضاء . واعظنا الى بيت الصنم ناظر ، ومفتينا بالفتوى يتاجر .

— ١٢ —

الوقت سيف

ويستمر الشاعر فى بيانه وقصَصه وتمثيله ، حتى يعقد هذا العنوان . « الوقت سيف » . فيثنى على الامام الشافعى الذى أثِرت عنه هذه الكلمة . ويبين الشاعر مذهبه فى الوقت وقد أجمله فى كتابه الى الأستاذ نكلسون الذى قدمنا ترجمته [1] . ويقول فى هذا الفصل : ان الانسان توهم الوقت خطًّا ممدودا ، وقاسه بالليل والنهار . فوقع فى شباك الوقت . والحق أن الوقت هو الحياة ، هو الأمل والعمل والسير والدأب .

كان هذا السيف فى كفّ الكليم ... فشأى التدبيرَ بالفعل القويم
شقّ صدر البحر لمعُ القبس ... صيَّر القلزمَ مثل اليبَس
وبهذا السيف يومَ الخطَرِ ... زلزلت خيبر كفُّ الحيدر [2]
متمكن ابصار دور الفلك ... وتوالى صبحه والحلك
يا أسير اليوم والأمس انظرا ... انظرن فى القلب كونا آخرا
أنت فى النفس بذرت الباطلا ... وحسبت الوقت خطًّا طائلا
وذرعت الوقت طولا ، للشقاء ، ... بذراع من صباح ومساء
واتخذت الخط زنّارا فما ... كنتَ فى الباطل الا صنما
اقطع الزنّار حرًّا لا تهن ... شمعةً فى محفل الأحرار كن

---

(١) انظر ص ٥٨

(٢) الحيدر على بن ابى طالب ، والاشارة الى مآثره فى فتح خيبر .

ايه يا غافل عن سرِّ الزمان — كيف تدرى ماخلود الحيوان[1]
كم ترى فى أسر صبح ومساء — «لى مع الله» بها الوقت أضاء [2]
من مسير الوقت كلٌّ يظهر — والحياةُ السرُّ منه يَبهَر
ما من الشمس زمانى يوجد — تلك تفنى وزمانى يَخلُد
وبه الشمس أضاءت والقمر — وبه فى العيش ماساء وسرّ
قد بسطتَ الوقت بسطا كالمكان — وفرّقتَ اليوم من أمس الزمان
وقتنا من قلبنا يزدهر — ليس فيه أول أو آخر
هو من صبح منير أنور — هو فى الحيّ حياةٌ تزهر
الحياةُ الدهر يا من عرفا — «لا تسبوا الدهر» قولُ المصطفى[3]

ثم يمضى الشاعر فى بيانه فيقول : ان الفرق بين الحر والعبد أن الحر يحتوى على الزمن ، والعبد يحتوى عليه الزمن . فالحرُّ يتصرف لا يحدُّ عمله يوم وغد ، ولا نهار وليل ، ولا يعتلُّ بحكم الزمان . وللعبد تعلاّت من حدود الزمان وأحكام الوقت . وحسبى من أبيات كثيرة هذه الأبيات:

نسج العبد عليه كفنا — من صباح ومساء ، مذعنا
وترى الحرَّ على الترْب علا — ناسجا همته فوق المَلا [4]
فطرةُ العبد حصول الحاصل — ليس فى أفكاره من طائل
فى مقام من همود راكدُ — نوحُه ليلا وصبحا واحد
ومن الحرِّ جديد الخلقة — كلُّ حين وجديدُ النغمة
قيّد العبدَ صباح ومساء — وثوى فى فمه لفظ القضاء
وأرى الحر مشيرا للقدر — صوّرت كفّاه أحداثَ الدهر

(١) الحيوان الحياة . وفى القرآن الكريم : « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »
(٢) اشارة الى حديث يرويه الصوفية : « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه نبى مرسل ولا ملك مقرب » .
(٣) اشارة الى الاثر المروىّ : لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر .
(٤) الملا واحد الملوين . وهما الليل والنهار .

سرُّ غيب وحضور ، فى الفؤاد   رمز وقت ومرور ، فى الفــؤاد

— ١٣ —

دعــــاء

ويختم اقبال هذه المنظومة بدعاء يسأل الله فيه أن يهب المسلمين العشق وحُرقة السعى . ويشكو من نار تشتعل بين جنبيــه ويضرع الى الله أن يهبه نجيًا يتلقى عنه دعوته ، ويدرك أسراره ، أو يسلبه هذه النّار الّتى تضطرم فى صـدره .

الفصــل الثالث

المنظــومة الثانيــة

رموز نفى الذات (رموز بى خودى)

بنى اقبال فلسفته على الذات . ودعا الى اثباتها وتربيتها وتقويتها ، كما يرى القارىء فى الخلاصة التى قدّمتها من منظومة «أسرار الذات» ؛ عنّى الشاعر فى هذه المنظومة (أسرار خودى) بالاعتراف بالفرد ،والايمان بقواه الكامنة ، وبما تفعل هذه القوى فى هذا العالم اذا أثيرت .

ثم أكمل اقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد القوىّ ، أو الذات الكاملة؛ وبين الجماعة التى يعيش فيها .

يرى اقبال أن الذاتية أو الفردية أساس العالم ، وأن الخير كل الخير فى تقوية ذات الانسان ، واستخراج مافى فطرتها من قدرة . وكذلك يرى اقبال أن هذه الذات لا تربّى وتكمل الا فى الجمــاعة ، وأن عمل الجماعة أن تمكّن الفرد من بلوغ كماله باظهار كوامن فطرته ومنتهى قدرته .

فالمنظومة الأولى تتناول الذات وتربيتها ، ولا تخلو من كلام عن صــلة

الفرد بجماعته . فأن عسيرا أن يفصل الباحث أو الشاعر بين الموضوعين فصلا تاما .

والمنظومة الثانية تعالج الموضوع الثاني : الجماعة ، نظامها وكمالها ، وتنشئة الفرد فيها . ولا يخلو كلامه فى هذا من كلام فى الذات كذلك .

والى القارىء خلاصة هذه المنظومة « رموز بى خودى » :

يبدأ المنظومة بتمهيد فى ارتباط الفرد والأمة . ثم يعقد الفصول الآتية:

١ ـ الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوة
٢ ـ أركان الأمة الاسلامية :
ا ـ الركن الأول التوحيد .
ويستطرد فى بيان التوحيد الى فصول أخرى :
أن اليأس والخوف والحزن أمهات الخبائث ، وقاطعات الحياة وأن التوحيد يزيل هذه الأمراض الخبيثة .
ويعقد الشاعر فصولا أخر للتمثيل .

ب ـ الركن الثاني الرسالة . وفى هذا العنوان فصول منها :
ـ أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية والمساواة والأخوة بين بنى آدم . ويقص فى هذا الفصل قصصا شتى .
ـ وأن الأمة المحمدية مؤسسة على التوحيد والرسالة فلا يحدها مكان
ـ وأن الوطن ليس أساس الأمة .
ـ وأن الأمة المحمدية لا يحدها زمان . ودوامها موعود
ـ وأن نظام الأمة لا يكون بغير القانون . وقانون أمة محمد القرآن .

ـ وأن تنضج الأمة باتباع الشريعة الالاهية .

— وأن حسن سيرة الأمة بالتأدب بالآداب المحمدية .
٣ — حياة الأمة تقتضى مركزا محسوسا . ومركز الأمة الاسلامية الحرم .
٤ — الاجتماع الحقيقى لا يكون الا بمقصد يقصد اليها . ومقصد الأمة المحمدية حفظ التوحيد ونشره .
٥ — توسع حياة الأمة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأمة أن تحس ذاتها كما يحس الفرد . وينشأ هذا الاحساس ويكمل بحفظ سنن الأمة .
٦ — بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة وتبجيلها من قواعد الاسلام
٧ — السيدة فاطمة الزهراء أسوة كاملة لنساء الاسلام
٨ — خطاب الى المسلمات .
٩ — خلاصة مطالب المنظومة فى تفسير سورة الاخلاص .
١٠ — مناجاة المصنف الرسول الذى بعث رحمة للعالمين .

وأعبرُ مع القارىء هذه الفصول عبّرا موجزا كل الايجاز :

التمهيد فى ارتباط الفرد والجماعة

يبين الشاعر العروة الوثقى التى تربط الفرد بجماعته، يبين أن الفرد مرآة الجماعة ، والجماعة مرآة الفرد . وهما كالجواهر والسلك ، وكالنجوم والمجرّة . الجماعة تنتظم بالأفراد . والفرد يقوّم فى الجماعة .

ثم يقول ان الفرد يغفل عن المقاصد ، وتنتشر قوته ، فتعلمه الأمة ضبط النفس ، وتقيّده بالقانون لتحرره .

فاذا الواحد فى الجمع انتمى — فهو كالقطرة صارت خضرما
جمع الماضى له فى حسبه — والتقى الغابر والآتى به
وصلة الغابر والمستقبل — وقته من أبد أو أزل
هو بالأمة قلب طامح — وهو بالأمة سعىٌ رابح
روحه من قومه ، والبدنُ — سره من قومه والعلن

ويمضى الى أن يقول : ان الفرد غلط فلم يميّز اثبات الذات من نفى

الذات • ويبيّن له قيمة الذات وقوتها ، وكيف تتجلى من خلوتها فاذا هي مقسّمة في الجماعة عاملة فيها •

***

— ١ —

الامة تنشأ من اختلاف الافراد وكمال تربيتها بالنبوة

يبين كيف تنتظم الجماعة من الأفراد ، كما يَجذب النجم النجم ، ويستحكم الكوكب بالكوكب •

ويقول ان الجماعة تسير سادرة غافلة ، بالمقاصد جاهلة ، لا تتجلى قدرتها ؛ ولا تشحذ عزيمتها ، حتى يبعث الله فيها هاديا :

عازفٌ لحنَ حياة ينفثُ   فاذا الطين حياةٌ تبعث
ينشر الأنفسَ منه نفَسٌ   وبكأس منه يزهو مجلس
شَمّة تحيي وعَين تَجذب   وحدُ الاثنين هذا الطلب
فترى الأمة منه سائرة   في لهيب منه حرّى ثائرة
شَرر في قلبها يشتعل   فاذا الطينة منها شُعَل

ويأتي هذا الهادي الى العقل فيجبوه ويكسوه ويمدّه ، وينفخ النار في موقده الهامد ورماده الخامد • ويحرر الناس من عبادة الاوثان والبشر ويعبّدهم للقانون والسّنن :

وبَفكّ العبدَ من أغلاله   ويُجير القِنَّ من أقياله
صائحا أن لستَ عبدا لأحد   حرّرن نفسك لله الصمد

بجعل الشرع قيادا في اليد   يجذب الأنسان شطر المقصد
نكتةَ التوحيد يوحيها اليه   أدبَ الطاعة تمليه عليه

اركان الامة الاسلامية

ا ـ الركن الأول التوحيد

هو الأكسير الذى يحيل التراب ذهبا ، والسر الذى يتجلى منه الدين والشرع والحكمة والقوة والسلطان . وهو الدواء الذى يميت الخوف والشك ، ويحيى العمل والأمل . ويقهر كل صعب ويذلل كل عقبة .
كلمة التوحيد هى الروح فى أمتنا ، وهى اللحن فى عودنا . وبها الحياة وبها القوة :

هو قلب ان حواها حجرٌ كلُّ قلب لم تنره مَدرٌ
قد أضاء القلبُ من وقدتها واستشاط الكون من آهتها

وبمضى الشاعر مبينا كيف جمع الناسَ الوحيد . وسوى بين الأبيض والأسود . الى أن يقول : أن أمتنا قائمة بالتوحيد لا بالنسب ولا بالوطن .

امم قد عبّدت أوطانها وبنت من نسب بنيانها
أترى الأوطان أصل الأمم
تعبد الأرض بها كالصنم ؟

هذه الأنساب فخر السفهاء حكمها فى الجسم . والجسم هباء
ولنا فى الحق أسٌ آخر هو فى الألباب منا مضمر
قد خلصنا من حدود وقيود قلبنا فى الغيب اذ نحن شهود

ثم يتكلم اقبال عن الخوف واليأس وأثرهما فى الحياة ويضرب فى هذا المثل بعد المثل .

***

ب ـ والركن الثانى الرسالة

يبين فى هذا الفصل أن الرسالة تجمع أشتات الأفراد وتنظم منها الأمة، فتوحّد كثرتها ، وتحكم ألفتها ، ويقول : ان المسلمين من الرسالة فى دائرة مركزها الحرم ، ومحيطها غير محدود . ويبيّن كيف يربط الكتاب الحكيم بعض المسلمين ببعض الى أن يقول :

قد هدانا الحقّ هذا المرسَلُ	فى سبيل الحق نحنُ الشُّعَل
بحرُه أخرج هــذا الجوهرا	نحن رُوح واحد بين الورى
ختم الله علينـــا شرعتــه	وعلى المُرســل فينا بعثته
مَحفــلُ الأيام منــا ينتظم	ختــِم الرُّســل بنــا والأمم

***

ثم يمضى اقبال فى بيانه عن الرسالة حتى يضع هذا العنوان :

« مقصود الرسالة المحمدية المساواة والحرية والاخوة بين بنى آدم »

فيبيّن كيف كان الانســان عبدا للملوك والقسيسين من النصــارى والمجوس والبراهمة . حتى بُعث الرسول صلوات الله عليه ، فأعطى كلّ ذى حق حقه ، وحرّر الناس ورفع عنهم الآصار ، ووضع عنهم الأغلال .

قوةٌ هدّت قديمات الصُّوَر	شيّدت حصنا جديدا للبشر
أشرق الكون بها فى الظُّلَم	كعبةٌ شــادت ببيت الصنم

ويضرب مثلا فى الأخوة الاسلامية ، قصةَ القائد الفارسى الذى أسر فاستأمن آسرَه فأمّنه ، وهو يحسبه جنديا من الجند . فلما تبين أنه قائد أراد الجند قتله .

فقال قائد المسلمين أبو عبيد الثقفى : « لقد أمّنه واحد منــا . ونحن

سواء » . وهى السنة التى سار عليها المسلمون وجاء فيها الحديث . « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » .

ثم يقص الشاعر قصة أخرى : غضب السلطانُ مراد العثمانى على مهندس بنى له مسجدا فلم يعجبه . فضربه فقطع يده . فسار المهندس الى القاضى فدعا السلطان ، وحكم عليه بالقصاص . فتقدم السلطان خاشعا خائفا مادا يده للقطع . فعفا عنه المهندس .

وينتهى الشاعر الى عنوان آخر :

الامة المحمدية مؤسسة على التوحيد والرسالة

فلا يحده مكانها

لا ترى المسلم يحويه عطَن	تائهٌ فى قلبه كلُّ وطن
حَصِّل القلبَ ففى وُسعته	ضلَّ هذا الكونُ فى فسحته
عقدة الأقوام حلَّ المسلمُ :	هجَر الدار النبىُّ الأعظم
أمةٌ مِلء البرايا أسَّسا	وضع التوحيدَ فيها أُسُسا
أسبغ الفضلَ علينا وهدى	صيَّر الأرض جميعا مسجدا

ويعقب هذا العنوان عنوان آخر :

الوطن ليس اساس الامة

يقول فيه أن العصبيات الوطنية قطعت أرحام الأمم . ويبين كيف هجر النصارى دين عيسى « وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون » .

ويذكر مكيافلى الايطالى وأثره فى سياسة أوربا الى أن يقول :

جعَل المُلكَ الاها دينه	كل قبح ناله تحسينه
وزن الحقَّ بربح وجَدَى	ولدى المُلك خنوعا سجدا
صيَّر الحيلة فنا محكما	فزها الباطلُ منّا علّما

ثم يثبت الشاعر هذا العنوان :

الامة المحمدية ، ليس لها نهاية زمانية

فيبيّن ، كما بيّن من قبل ، أنها أمة لا تفنى ، لأنها قائمة على أصول خالدة لا ينال منها تقلب الزمان ، وكرور الأيام .

ثم يبين ما أصاب المسلمين من مصائب ، ويذكر فتنة التتار ويصف أهوالها . ثم يقول : ولكن المسلمين سلموا من هذه النار كما سلم الخليل . بادت الأقوام ، وفنيت الأجيال . وثبتت الأمة الاسلامية على الخطوب الجسام ، والحوادث العظام .

أمة الاسلام تبقى أبدا | وأذان الحق فيها خلدا
أحيت العشقَ قلوب تسعرَ | شبّها من « لا الاه » الشرر

ويمضى الشاعر الى هذا العنوان :

لا تنتظم امة بغير شريعة . وشريعة الامة الاسلامية القرآن

فيبيّن أثر النظام فى الأمم ، وفى النبات والجماد وغيرهما بيانا موجزا قائلا :

من نظام الصوت تبدو النغمةُ | وهو من دون نظام ضجّة
انما فى الحلق موجٌ من هواء | يَعلق النظم به فهو غناء
صاح هل تعرف مادستورنا ؟ | كيف فى الدهر مضى تدبيرنا؟
الكتابُ الحيُ والذكر الحكيم | حكمةٌ فى الدهر تبقى لاتريم
نسخةُ الأسرار من هذه الحياة | يستمد الضعف أبدا من قواه
قوة فيه تشدُّ الخورا | وبها يرمى الزجاجُ الحجرا

* * *

الى أن يقول :

الذى يتصدع منـه الجبـل وعلى الأفلاك منـه وجـل
ذلك الينبـوع من آمالنـا قد حواه الصدر من أطفالنا

ويذكر اقبال المسلم العربى الذى رباه القرآن حتى :

شمل الدنيـا جميعـا عدله عرش جم وطئته رجله [1]
مدنا قد شيدت همته ورياضـــا أنبتت وردته

ويصل هذا الفصل بآخر يشبهه عنوانه :

نضج سيرة الامة من اتباع الشرع الالهى

فيبين دعـوة الاسـلام الى القوة ، وتقوية المسـلم بالشريعة . ويقول ان الشرع يريدك حين الحـرب ، شـعلة تذيب الصخر . ويمتحن قوتك بالصعاب ، ويضع فى طريقك العقـاب ، ويقول لك انسف الطود بعزمتك ، واسحقه بضربتك . ويهبك بالعمل عصبا من حديد .

ويمضى قائلا : ان المسلم القوى الذى نشأته الصحراء ، وأحكمتـه رياحها الهوجاء ، أضعفته رياح العجم ، فصار فيها كالناى نحولا ونواحا . وأن الذى كان يذبح الليث كالشاة ، تهاب وطء النملة رجلاه ، والذى كان تكبيره يذيب الأحجار ، القلب وجلا من صفير الأطيـار . والذى هزىء عزمه بشم الجبال . غل يديه ورجليه بأوهام الاتكال . والذى كان ضربه فى رقاب الأعداء ، صار يضرب صـدره فى اللأواء . والذى نقشت قدمه

(١) جم : جمشيد من ملوك الاساطير الفارسيه

على الأرض ثورة ، كسرت رجلاه عكوفا فى الخلوة ، والذى كان يُمضى على الدهر حكمه ، ويقف الملوكُ على بابه ، رضى من السعى بالقنوع ، ولذَّله الاستجداء والخنوع .

ويلى هذا فصل عنواله :

حسن سيرة الامه من التادب بالآداب المحمدية

ويقص فى هذا الفصل القصة التى أجملتها حين الكلام على والد اقبال [٢] قصة السائل الذى آذاه اقبال ، فحزن والده لما رأى ووعظ ابنه واشتد فى تأنيبه .

ويزيد على ما أسلفت فى ذلك الفصل قوله على لسان والده :

« ان فطرة المسلم الرحمة ، وللرحمة يده ولسانه فى هذه الدنيا . وان الرسول بعث رحمة للعالمين ، فأن بعدت عن سنته فلست منّا .

أنت طائر فى بستاننا ، تغرّد بتغريدنا . فان تكن ذا نغمة ففى بستاننا فغنّ بها . كل حىّ تهلكه العناصر المضادة . فأن تكن بلبلا ففى الروض طيرانك وتغريدك ، وان تكن عقابا ففى الصحارى مسرحك ومصيدك . وان تكن كوكبا فأضىء فى حِباكِك ولا تحِد عن أفلاكك .

الى أن يَختم الفصل بقوله :

ان طينة المسلم الطاهرة لؤلؤة . من بحر النبى ماؤها ولألاؤها . فياقطرة

---

(٢) ص ١٧ من هذا الكتاب

بسان غوصي في بحره ، ثم اصعدي درةً من درِّه [1] وكوني في الدنيا أضوأ من الشمس ، وليدم ضوؤك على الدهر أبدا »

ثم انظر خلاصة الفصل الذى عنوانه :

— ٣ —

حياة الامة تقتضى مركزا محسوسا ومركز الامة الاسلامية الحرم

يبدأ الفصل قائلا : أحِلُّ لك عقدة من أمر الحياة وأنبئك بسر الحياة .

ويصف الحياة فى فرارها وقرارها ، الى أن يقول :

ان الحياة طائر لا عشّ له . انها ليست الا الطيران . انها طائر طليق وفى القفص حبيس ، يخلط تغريده بنواحه . الحياة تعقد العقد فى أمورها ، ثم تحل ما انعقد بتدبيرها .

ان الحياة السريعة تقيد قدمها فى الطين ، لتزيد لذة نمائها وسيرها كل حين . وان فى حرّقتها ألحانا لا تنفد ، وان وليد يومها الأمس والغد .

هى كالرائحة حركة لا تقرّ ، ولكن تسكن الصدر فتصير نفَسا حيًّا .

عقدت الحياة فيها ورق وثمر كالحبة ، تفتح عينها على نفسها فاذا هى شجرة . وتلبس الحياة خلعة من الماء والطين ، فاذا هى حواس مدركة . »

يعنى أن الحياة وهى دائبة السير والتقلب لا تتجلى الا فى صورة ثابتة محدودة . ويقول بعد :

---

(١) يزعم الشعراء ان قطرات مطر نيسان (ابريل) تنزل فى الاصداف فتنطبق عليها حتى تصير لؤلؤة

كذلك سنة ميلاد الأمم ، أن تجتمع الحياة فى مركز . المركز من الدائرة كالروح من الجسد ، أن خطها مضمر فى نقطتها .

بالمركز انتظام الأقوام ، وبالمركز يقدر لها الدوام . وان سرنا فى الحرم ، وفيه بكاؤنا وغناؤنا لاجرم :

بستاننا من نداه زاهر ، وزرعنا من زمزمه ناضر . وبه علا فى الدنيا صوتنا ، ووصل قديمنا حديثنا . ان التئام الملة البيضاء من الطواف بالحرم . به توحدت كثرتنا ، واستحكمت بقيد الوحدة عزيمتنا »

ان الاجتماع روح الأمم ، والاجتماع هو السر فى هذا الحرم .

ثم يضرب الشاعر مثلا باليهود تقطعوا فى الأرض حين فقدوا المركز .

ويختم الفصل قائلا :

ياشاكيا جور الزمان ، ويا أسير الوهم والحسبان ! اجعل قميصك ثوب الأحرام ، وأطلع الصبح فى هذا الظلام . واستغرق كآبائك فى السجود ، حتى تكون سجدة للواحد المعبود . ان المسلم الأول خضع للخلاق ، فسيطر على الآفاق . ومشى على الشوك فى سبيل الحق ، فأنبت الورد فى الغرب والشرق .

— ٤ —

الاجتماع الحقيقى بالسعى الى المقصد
ومقصد الامة المحمدية حفظ التوحيد ونشره

يبدأ الفصل قائلا :

أعلمك لغة الكائنات ، ان أعمال الحياة حروف واضحة وكلمات .

ويبيّن الشاعر أثر المقصد فى الأمة كما بيّن أثر المقصد فى الواحـد فى كتاب أسرار خودى . فيقول ان مقصد الحياة سر بقائها ، وبه يأتلف ماتفرق من قوّاها . واذا تنبّهت الحياة سـدها ، وجّهت أسباب العالم اليه . وتوجهت نحوه تجنى وتنتقى وترد . انما هام قيس فى الصحراء ، من أجل محمل ليلى . وقد هجرنا الصحارى حين سكنت ليلانا المدائن .

واقبال معجب بالصحراء رياحها وشمسها ، وسـعتها ، والضرب فى أرجائها يرى فيها قوة النفس ، ومضاء العزم

ثم يقول :

ان المقصود هو روح العمل ، يستمد كل عمل منه كيفه وكمه .

فلتكن كالمجنون هيّاما بمقصدك ولتطف بهـذا الشمع كالفراش[1] ان من يغفل نفسا واحدا يبعد عن المنزل ألف فرسخ .

***

ثم يقول ماقال قبلا : ان الكون يعمل جاهدا حتى يبلغ مقصـدا من مقاصده . فهو يغرس ألف مقصبة ليظفر بأنّة من ناى[2] . وكم صـوّر ورمى وكسر حتى أثبت صورتك فى لوح الحياة . وكم بث نواحا فى النفس حتى صعد صوت أذان . وكم حارب الأحـرار ، ونصر الأشرار ، وبذر الايمان فى طين الانسان حتى قرأ على لسانك كلمة التوحيد .

وهنا يبلغ ماقال فى العنوان أن مقصد الأمة المحمدية حفظ التوحيـد

---

(١) يشير الى قصه مجنون ليلى

(٢) الناى يتخذ من قصب . فالطبيعه تنبت الف مقصبة حتى تخرج نايا واحدا ، اى ان الرقى والكمال فيهما صعب بطىء

ونشره ، فيبين خطر التوحيد وقيمته ويقول انه مركز دوران العـالم
ومنتهى أمره ـ الى أن يقول :

ان نغماته كامنة فى موسيقى الكون ، وان هذه الموسيقى لتنتظرك أيها العازف ... ان فى دمك مئات الالحان ، فهيا فاضرب على أوتارها ... فأن فى التكبير سر كيانك ، وحفظ « لا اله » ونشرها مقصود حياتك .

ويفيض اقبال فى بيان تبعة المسلم فى اعلاء الحق ، وأن دين الاسلام قرين الحياة ، ولا تكون الحياة الا به . الى أن يقول :

ان فكر الانسـان ناحت صنم ، وعابد صنم . يخلق فى كل زمان صنما . وقد جدد اليوم لنفسه أوثانا من اللون والنسب والوطن .

وان الانسانية ذبحت على أقدام هذه الاوثان . فهيا ياربيب التوحيد !

وامح بسيف التوحيد هذا الباطل اللابس ثوب الحق .

ويختم الفصل بقوله :

انى لأرعد من خزيك يوم يسألك الرسول . قد أخذت منا كلمة الحق، فلماذا لم تسلمها الى الخلق ؟

— ٥ —

ويمضى الشاعر الى فصل عنوانه :

توسيع حياة الامة بتسخير قوى العالم

وكمالها ان تحس نفسها كالفرد وتحفظ سننها

يقول ان هذا العالم مسخر للانسان ، وان للانسان فيه جهـادا ، وأن لذة الانسان وكماله فى هذا الجهاد . ومن سخر المحسوسات فقد أنشأ

محمد اقبال شاعر وفيلسوف

عالما من ذرة . ان الجبال والصحارى والبحار لوح لأرباب النظـر . أيها النائم بالأفيون ، والمحتقر عالم الأسباب . افتح عينك ، واعرف قـدر هذا العالم . ان غايته توسيع « ذات » المسلم وامتحان ممكنـاته . ان الزمان يضربك بسيفه ، ليشعرك ان فى بدنك دما .

وان الله جعل هذه الدنيا نصيب الاخيار ، وجلا محاسنها لعين المؤمن .

هذه الدنيا طريق للقافلة ، هذه الدنيا امتحان لقوة الايمان . فسخرها لئلا تسخرك .

ان فكر الانسان يسبح فى العالم ليسخر قواه ، ويتصرف فيه فنون التصرف . فاركب الهواء ، واصدع الجبال ، واستخرج اللؤلؤ من البحار .

ان فى هذا الفضاء مائة عالم ، وان شموسا كامنة فى كل ذرة : فأظهر الأسرار ، واكشف الخفايا للانظار . ان هذه النجوم ثابتها وسيارها ، هذه التى اتخذها القدماء آلهة ، ليست الا عبيدا خاضعة لك ، مسخرة لأمرك

الى أن يقول :

ان القطرة التى تدرك نفسها ، تنقلب فى عروق الكرم خمرا ، وعلى أوراق الورد ندى ، وفى قاع البحر دراً .

ويختم الفصل قائلا :

يامن عىَ حماره فى طريق الحياة ، ومن غفل عن معركة الحياة ! قد بلغ المنزل رفاقك ، وأنزلوا ليلى من محملها . وأنت كقيس فى الصحارى هائم .

انَ فى علم الأسماء « قيمة الانسـان ، وان فى حكمة الأشـياء قوة الانسان » .

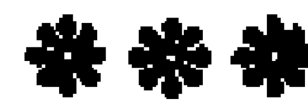
ويمضي اقبال فيبين ان كمال حياة الأمة أن تحس نفسها كالفرد ، وأن نشأة هذا الاحساس وكماله بحفظ سنن الأمة .

فيبدأ بالحديث عن الطفل ، لا يدرك ذاته ولا يعرف الا أمه .

مولع بالرضاع والبكاء والنوم ، ومغرم بالطلب والسؤال كل حين .
فكره في كل أمر ، وقابل لكل نقش ، وهو عالة على غيره .

حتى يقع نظره على نفسه فيقول « أنا » وتعرفه بنفسه الذكرى وتربط أمسه بغده . فتنتظم أيامه في هذا السلك الذهبي،كما ينتظم اللؤلؤ.ويتغير بدله كل ساعة ولكن يقول في نفسه :

« هأنذا كما كنت » . « أنا » هذه فاتحة الحيـــاة ، ونغمة اليقظـــة في موسيقاها .



وكذلكم الأمة الوليدة تنشأ كالطفل ، ترى غيرها ولا تبصر نفسها .
وتتقلب بها الواقعات حتى تعرف نفسها وتصل بالذكر ماضيها وحاضرها.
ويضيء لها الطريقَ تاريخها .. فأن نسيت واقعاتها ارتكست في العدم .

أيها العاقل ! ان اتصال أيامك ، هو الخيط الذي يمسك كتاب وجودك.
اتصال الأيام ثوب لنا ، خياطه[1] حفظ السنن القديمة . ما التاريخ ياغافل

---

(١) الخياط الابرة

عن نفسه ؟ أتراه قصصا وأحاديث وخرافات ؟ انه الذى يعرّفك نفسك، ويبصّرك طريقك . انه حرارة الروح ، وأعصاب الملة . انه المسنّ الذى يشحذك كالخنجر ، ثم يضرب بك فى هذه الدنيا .

ويمضى الشاعر فى بيانه واحسانه حتى يقول :

أحكم تاريخك تحكم نفسك ، وصل بيومك أمسك . ان حالك يطلع من ماضيك ، ويشرق من حالك آتيك . فان ترد الحياة الخالدة فلا تقطع سلسلة هذه الثلاثة . انما الحياة موج هذا التسلسل .

— ٦ —

بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة وتعظيمها

من قواعد الاسلام

يتكلم فى هذا الفصل عن الأم ، يعلى قدرها . ويبيّن فى الأمة خطرها . ومهما يفض شاعر فى الاشادة بالأمومة فقدرها أكبر ، وفضلها أكثر .

يقول فيما يقول :

ان المسلم الذى لا يقدر المرأة قدرها ، لم ينل نصيبا من حكمة القرآن . ان الأمومة رحمة ، ولها الى النبوة نسبة ، وانها لكاتبة سيرة الأمة . ومن يفكر فى لفظ الأمة والأم تبين له دقائق الحكم . وقد قال سيد الكائنات : الجنة تحت أقدام الأمهات . ان الأمة من صلة الأرحام ، والحياة بدونها لا تبلغ المرام .

وبالأمومة تسير الحياة سيرها ، وتجلو أسرارها .

ثم يقول :

ربما تنجب بنت الزارع الجاهلة ، التى لا تحسن الكلام ولا تبين فى الخصام مسلما نجيبا غيورا ، للحق نصيرا . ان حياتنا من آلام الأم وصبحنا من ظلامها .

وهذه العقيم الرخيم ، ذات النظرات الثائرات ، الخالية من الأحمال . التى أضاء بنور الغرب فكرها ، واختلف باطنها وظاهرها [1] قد قطعت أوصال الملة البيضاء ، حين نثرت نظراتها الرعناء . حريتها وقاحة وفتنة ، وصفاقة وجرأة . لم يطق حمل الأمومة عِلمها ، ولم يضىء فى ليلها نجمها[2]

الى أن يختم الفصل قائلا :

ان ثروة الأمة قادتها الهادون ، لا الأمتعة والفضة والذهب . وان رأس مالها نسل شديد ، ذو فكر خصب وعزم حديد . الأمهات للأخوة حافظات، وعلى القرآن والأمة قائمات .

— ٧ —

سيدة النساء فاطمة الزهراء اسوة كاملة للمسلمات

يصف فى هذا الفصل فاطمة البتول رضى الله عنها بما هى أهله . ويذكر ولديها الكريمين الحسن والحسين .

ويقول :

قد أدبها الصبر والرضا ، فهى تتلو الكتاب وتدبر الوحى . وكم ذرفت فى الصلاة الدموع ، من القنوت والخشوع .

---

(١) يقول : هى فى الظاهر امرأة ، وفى الباطن ليست امرأة

(٢) لم تسعد بولد

لولا نهى الدين ، وأمر النبي الأمين ، لطفت حول تربتها وسجدت على ترابهـا .

— ٨ —

خطاب الى المرأة المسلمة

خلقتك الطاهرة لنا رحمـة ، وأنت قوة الدين وحصن الملة . بامن تفطمين فينا الوليد ، على كلمـة التوحيـد ، ان حبك لينحت أطوارنا ، ويصور أعمالنا وأفكارنا . وبرقنا الذى ربّاه سحابك الوضـاء ، غشى الجبال وطوى الصحراء .

يا أمينة على الشرع المبين ، ان فى أنفاسك حياة الدين .

ان هذا العصر ذو فتون ، قافلته تقطع طريق الدين . وقد عمّى ادراكه فأنكر الخالق ، وقيّدت سلاسله كل مارق .

صيده يخال نفسـه حراً ، وقتيله يسمى نفسـه حيّا . لا تسلكى الا سبيل الآباء ، ولا تبالى بما تلقين من عناء .

احذرى الزمان فى سيرك ، وضمى أولادك الى صدرك .

هذه العصافير بعدت من أعشاشها ، قبل أن تطير بها أجنحتها

يافطرةً نزّاعة الى العلاء ، لا تغمضى عينك عن سيرة الزهراء .

لعل حسينا فى حجرك يزهر ، فيترعرع بستاننا وينضر .

ويختم الشاعر منظومته بفصل عنوانه :

— ٩ —

خلاصة مطالب الكتاب بتفسير سورة الاخلاص

ولا أجد حاجة الى تلخيصه ، على مافيه من معان قيمة وصور رائعة ، وحسبي ما أجملت آنفا من فصول المنظومتين ٠

***

عبرت مع القارىء منظومتي الأسرار والرموز ، واستخلصت له مقاصدهما ، وأجملت له مطالبهما ، ودللته بالقليل على الكثير ، وبالزهرات على الروض النضير ٠

آثرت أن أصل التلخيص بالأدب أكثر مما أصله بالفلسفة ٠ وكذلك أراد الشاعر أن يلبس فلسفته ثوبا من الشعر يجملها ويقربها الى القراء٠

الفصل الرابع

أوجه اخرى لفلسفة اقبال

أساس فلسفة اقبال الذاتية ، تدور آراؤه على محورها ، وتتفرع أفكاره من أصلها ، ولكن لفلسفته أوجها كثيرة منها ماعرفه القارىء فيما عرضت عليه من فصول المنظومتين أسرار خودي ورموز بن خودى ٠ ومنها ما يتجلى فى دواوين أخرى ٠ ومنها ما أبانه فى لغة الفلسفة لا الشعر ، فى محاضرات ومقالات كثيرة ٠

ولا يتسع المجال لتفصيل القول فى أوجه فلسفة اقبال التى لم يرها

القارىء فيما أسلفت من فصول هذا الكتاب . وقد تعمدت أن يكون هذا الكتاب أقرب الى الأدب من الفلسفة ،كما اختار محمد اقبال الشعر لفلسفته فى معظم أصولها وفروعها .

وحسبى فى هذا الفصل أن أعرض على القارىء هذا الاجمال .

— ١ —

ذكرت فى سيرة اقبال أنه ألقى محاضرات فى مدراس وحيدر آباد وعليكره سنة ١٩٢٨ م . ألقاها باللغة الانكليزية

وهذا ثبت هذه المحاضرات :

١ — العلم والدين
٢ — والوحى الدينى فى معيار الفلسفة
٣ — وادراك الله ومعنى الصلاة
٤ — والنفس الانسانية حريتها وخلودها
٥ — وروح الثقافة الاسلامية
٦ — والحركة فى العقائد الاسلامية
٧ — وهل التدين ممكن ؟

هذه محاضرات لا بد لدارس فلسفة اقبال من قراءتها ، ففيها آراؤه فى موضوعات عدة مجتمعة مرتبة فى لغة فلسفية .

طبعت المحاضرات فى اكسفورد وفى الهند وشاعت . وكتب لها المحاضر مقدمة مختصرة بدأها بقوله :

« الاسلام دين يعنى بالعمل أكثر مما يعنى بالفكرة . »
ويقول بعد أسطر قليلة :

« لا ريب أن طوائف الصوفية الحقة قد عملت كثيرا فى توجيـه تطور الادراك الدينى وتحديده ، ولكن المتأخرين من الصوفية جهلوا العقل الحديث فعجزوا عن تقبل الأفكار الجـديدة ، انهم يسـيرون على طرائق نشأت فى أجيال لها وجهة فى الثقافة تخالف وجهتنا فى كثير من الأمور .

مثلا نجد فى القـرآن الكريم : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » فأدراك الوحدة الحيوية التى تعنيها هذه الآية يحتاج الى نظرات طبيعية ونفسانية غير التى ألفوها .

« دعت الى هذه المحاضرة الجمعية الاسلامية فى مدراس وألقيتهـا فى مدراس وحيدر آباد وعليكر . وقد حاولت فيها أن أسد حاجة المسلمين بعض السداد ، حاولت أن أجدد بناء الفلسفة الاسـلامية مراعيا سنن الاسلام الفلسفية ، وأحدث ما بلغته المعرفة الانسـانية . ولا شك أن هذا الوقت ملائم لهذه المحاولة .

« ان علم الطبيعة تعلم أن ينقد قواعده . فأدى هذا النقـد الى أن اختفت هذه المادية التى جعلها العلم الطبيعى ضرورية أول الأمر .

« وأحسب أن ليس بعيدا اليوم الذى يلتقى فيه الدين والعـلم على وفاق لم يحرزه أحد من قبل .

« وينبغى أن نتذكر ألا نهـاية للتفكير الفلسفى . ولعل تقدم المعرفة واتضاح سبل للتفكير جديدة ، يؤديان الى آراء جـديدة . وعسى أن تكون أصح من الآراء التى أعرضها فى هذه المحاضرات .

« ان علينا أن نُعنى بمراقبة تقدم الفكر الانسانى . ونقوم منه مقـام الناقد المستقل »

— ٢ —

نظرة فى هذه المحاضرات

كان الفيلسوف الشاعر فى هم دائم ، وحزن مستمر ممّا آل اليه أمر المسلمين فى الفكر والعمل .

وقد فكر كثيرا قبيّن فلسفته التى عرّفنا بها آنفا ، ثم خصّ العقـائد الاسلامية بهذه المحاضرات القيمة .

وكان يريد أن يسميها « الاسلام كما أفهمه » ثم سمّاها الاسم الذى شاعت به .

وكان اقبال ، حين أدركته المنية ، يعدّ العدة لكتاب واف فى التشريع الاسلامى . فأى خسارة خسرها المسلمون بوفاة محمد اقبال قبل أن يخرج لهم هذا الكتاب .

***

بيّن اقبال ما قصد اليه فى محاضراته بقوله فى احـداها ، مبيّنا صلة المسلمين بفلسفة أوربا وحاجتهم الى النظر فى آرائهم الدينية بعد ماكشف عنه العلم من حقائق فى الكون وطرائق للنظر :

« ان أظهر ظاهرات التاريخ الحديث سرعة اتجاه المسلمين اتجاها روحيا شطر الغرب . وليس فى هذا خطأ . فثقافة أوربا ، فى جانبهـا العقلى ،

ليست الا استمرار التطور فى جوانب مهمة من الثقافة الاسلامية . والذى نخشاه أن يقف المسلمون عند المظاهر البراقة فى هذه الثقافة الأوربية فلا يدركوا حقيقتها ، ويفقهوا بواطنها .

لقد لبثت أوربا فى عصور غفوتنا الفكرية ، جادة تفكر فى المسائل الكبيرة التى عنى بها فلاسفة المسلمين وعلماؤهم كل عناية .

وقد تقدم الفكر البشرى الى غير نهاية ، منذ العصور الوسطى التى انتهت فيها فرق المتكلمين المسلمين . ثم تسلط الانسان على الطبيعة أوحى اليه ثقة بنفسه ، وايمانا بتفوقه على ما يحيط به فى العالم . وعرضت للناس أنظار محدثة ، وأعيد النظر فى مسائل قديمة فى نور التجارب الحديثة ، ونشأت مسائل أخرى لم تعرف من قبل . وكأن عقل الانسان تفوق على كلياته الأساسية ، من الزمان والمكان والحدوث . بل أخذ تصورنا الأشياء يتغير بتقدم العلوم . فنظرية انشتاين غيرت نظرنا الى العالم ، وبينت طرائق جديدة فى النظر الى مسائل يشترك فيها الدين والفلسفة .

فلا عجب اذاً ، أن ينتظر ناشئة المسلمين فى آسيا وأفريقيا توجيهاً جديداً لعقائدهم . ان يقظة المسلمين تقتضى أن ننظر ، ولكن بعقل مستقل ، ماذا فكرت فيه أوربا ؟ وكيف نستعين بالنتائج التى بلغتها ، فى اعادة النظر فى المذاهب الدينية الاسلامية ، بل اعادة بنائها ان لم يكن من هذا بد . »

ويتصل بهذا قوله فى محاضرة أخرى :

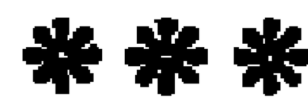
« ان على المسلم اليوم عملا شاقا . عليه أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون انقطاع عن الماضى .

لعل شاه ولى الله الدهلوى أول من شعر بالحاجة الى نظر جديد ،

ولكن الذى أدرك كل الادراك خطر العمل وسعته ، هو جمال الدين الأفغانى . وكان حريًا أن يكون حلقة حيّة بين الماضى والمستقبل بنظره الثاقب ، ونفاذه الى حقيقة تاريخ المسلمين وتاريخ ثقافتهم : الى ما أوتى من ادراك واسع يسّرته له تجاربه فى الناس والأخلاق .

فلو قصر جهاده الدائب على الاسلام من حيث هو نظام للعقائد والأعمال الانسانية لكانت قواعد الفكر الاسلامى اليوم أقوى وأقوم .

ليس لنا اليوم الا أن نقوم من العلم الحديث مقام المُكْبِر له القادر على نقده ، وأن نقوّم الفكر الاسلامى فى نور هذا العلم ، وان أدّى هذا الى أن نخالف سلفنا .



هذا الشعور بحاجة المسلمين الى الأخذ من العلم الحديث أخذ الناقد المعتد بنفسه ، واعادة النظر فى المذاهب الاسلامية ، هو الذى أوحى الى اقبال أن يفكر التفكير الواسع العميق ، ويتناول الموضوعات العسيرة الخطيرة التى تناولها فى هذه المحاضرات .

أعرض على القارىء جملة مختصرة من هذه المحاضرات ومسائل قليلة ممّا فيها لعله يتشوف الى قراءتها كاملة والتأمل فيها . وادراك معانيها ومراميها . [١]

١ ــ فى المحاضرة الأولى « العلم والادراك الدينى »

يبين اقبال فرق مابين المعارف المستقاة من ينابيع مختلفة . ويقول ان القرآن يسوّى بين نواحى الادراك الانسانى كلها فى الاستمداد منها لمعرفة الحقيقة النهائية .

---

(١) استعنت فى هذا التلخيص بكتاب صديقى الاستاذ سيد عبد الواحد .

ويقول : ولا بد ، من أجل ادراك هذه الحقيقة ، أن يصحب الادراك الحسى هذا الادراك الذى يسميه القرآن القلب .

وتكلم اقبال فى هذه المحاضرة عن قيمة الادراك الدينى فى المعرفة الانسانية . وبين قدر الالهام . وللالهام فى فلسفة اقبال مكانة عالية . وهو يرى أن الفكر والالهام ليسا متنافرين .

ب ـ وفى المحاضرة الثانية التى عنوانها «التمحيص الفلسفى للادراك الدينى »

يتحدث اقبال عن الامتحان العقلى الذى يمكن تطبيقه على المدركات الدينية . ويبين أن الادراك الدينى يقبل تمحيصا مشابها للتمحيص الذى تعالج به أنواع المعرفة الاخرى .

جـ ـ وفى المحاضرة الثالثة التى عنوانها : « تصور الله تعالى ومعنى الصلاة »

يبين اقبال تصور الله تعالى فى القرآن ، ويقول ان أكبر عناصر هذا التصور ، من وجهة فكرية خالصة ، الخلق والعلم والقدرة والبقاء .

ومن أمثلة نظرات اقبال فى هذه المحاضرة قوله ان تسمية الله تعالى نورا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ينبغى أن تفسر تفسيرا آخر . قد بين علم الطبيعة الحديث أن سرعة النور لا تمكن الزيادة عليها ، وأنها لا تختلف باختلاف طرائق الراصدين . فالنور فى العالم المتغير أقرب شيء الى الوجود المطلق . فتسمية الله بالنور مجازا ينبغى أن يفسر ، فى هدى العلم الحديث ، بالاطلاق ، لا بالحضور فى كل مكان ، هذا الوصف الذى يؤدى الى عقيدة وحدة الوجود .

ويقول اقبال فى هذه المحاضرة كذلك :

ان الحقيقة العليا ذات . ومن هذه الذات العليا تتجلى الذوات الأخرى بالخلق فحسب . والعالم فى كل أجزائه ، من الحـركة الآلية فيما نسميه الذرة المادية الى حركة التفكير الارادية فى الانسان ، ليس الا تجليا من الذات العليا . وكل ذرة ذات حركة الاهية هى ذات ، مهما انحطت مكانتها فى الوجود .

وينتقل اقبال بعد هذا الى الكلام فى الصلاة فيقول ما خلاصته :

الدين لا يقنع بالتصور فحسب بل يطلب اتصالا بمقصوده . ووسيلة هذا الاتصال العبادة أو الصلاة . الصلاة وسيلة الى استنارة روحية تعرف بها الذات الانسانية ـ هذه الجزيرة الصغيرة ـ أنها موصـولة بحيـاة أوسع ، وكون أفسح .

وكل طلب للمعرفة هو فى حقيقته صلاة . فالباحث فى العلم الطبيعى هو الصوفى فى صلاته .

وتزيد الصلاة قربا من مقصودها بالاجتماع . وكل عبادة هى فى جوهرها جماعية . والعبـادة ، فردية كانت أم اجتماعية ، هى اعراب عن تلهف الوجدان الانسانى الى استجابة له فى صمت العالم الهائل .

ومن وحدة الذات الكبرى التى تخلق كل الذوات وتمدها تنشأ وحدة النوع الانسانى . والقرآن الكريم يقول :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبا وقبـائل لتعارفوا . »

صلاة الجماعة فى الاسلام اعراب عن التطلع الى تحقيق الوحدة الانسانية برفع كل الحجب بين الانسان والانسان .

د ـ وفى المحاضرة الرابعة

يتكلم عن الذات الانســـانية حريتها وخلودها . ويبين كيف عمت المسلمين جبرية مشئومة ، على خلاف ما علمه الاسلام ووكده من حرية الذات . ويقول ان هذه الجبرية التى عرفها الأوربيون فى كلمة «قسمة» ترجع الى غلبة الفكر الفلسفى والى المطـــامع السياسية ، وضعف لبعض الحياة التى بثها الاسلام فى نفوس المسلمين .

ثم يقول اقبال :

نشأت ، على خلاف دعوة أئمة المســلمين ، جبرية مهلكة ، وشاعت نظرية الأمر الواقع لتحصيل منافع لبعض الناس ، وتيسير مطامعهم .

وليس هذا أمرا بدعا . فقد احتج فلاسفة محدثون بحجج عقلية على أن نظام رأس المال فى الجماعة نظام أبدى .

حدث مثل هذا فى تاريخ المسلمين ، ولكن درج المسلمون على التماس أدلة مذاهبهم فى القرآن ، ولو على خلاف معانيه الواضحة ، فكان للتأويل الذى يحتج به على الجبرية آثار بالغة فى الاضرار بالجماعة الاسلامية .

هـ ـ والمحاضرة الخامسة (روح الثقافة الاسلامية)

يقول فيها اقبـال ان القرآن بين أن الادراك الباطنى ينبوع واحد من ينابيع المعرفة الانسانية . وللمعرفة ينبوعان آخران همـا الطبيعـة والتاريخ . وبالاستقاء من هذه الينابيع الثلاثة تبلغ الثقافة الانسانية أنضر صورها .

ويقول اقبال ان الفكر الاغريقى لم يحدد خصائص الثقافة الاسلامية.

ويقول : ان فكرة فى الاسلام عظيمة لم تقدر قدرها ولم تعرف قيمتها فى الثقافة الاسلامية . وتلكم فكرة ختم النبوة . ان النبوة فى الاســلام بلغت أوج كمالها اذ عرفت الحاجة الى ختمها . لا بد لكمال الوجـدان

الأنساني من أن يوكل الى نفسه .

قد أبطل الاسلام سلطان الأحبار والرهبان ، وألغى وراثة الملك . ودعا القرآن الى الرجوع الى العقل ، والاعتبار بالتجاريب . ووجّه النظر الى الطبيعة والتاريخ على أنهما ينبوعان للمعارف البشرية .

وكل هؤلاء أوجه مختلفة للفكرة نفسها ، فكرة النهاية والكمال .

ثم يقول المحاضر :

وأعظم خصائص الثقافة الاسلامية توكيدها فى الأنفس « تصور عالم متحرك » وسنن مستمرة .

ومن قواعد الهدى الاسلامى أن الأمم والجماعات مأخوذة بأعمالها فى هذه الحياة . ولهذا يكثر القرآن من قصص الماضين ، ويأمر بالنظر فى تجاريب الأمم غابرها وحاضرها .

ويقوم تعليم القرآن فى هذا الشأن على أصلين :

الأول وحدة الأصل الانسانى . ويبين القرآن كثيرا أن الناس خلقوا من نفس واحدة .

والثانى قوة الشعور بأن الزمان حقيقى ، وتصور الحياة سيرا مستمرا فى الزمان .

وأن يدرك قادة العقول والأرواح فى الأمم حقيقة هذه الأصول الإسلامية ، يظفر الانسان بعالم للمعيشة أفضل من هذا .

و ــ والمحاضرة السادسة : « الحركة أصل فى التعليم الاسلامى »

تكلم فيها الفيلسوف المسلم عن تصور الاسلام العالم على أنه عالم حركة . وقال ان الاسلام ينكر أواصر الأنساب ، ويعترف بالأواصر الروحية ، ويقرر أن حياة الانسان روحية فى كنهها . ولا يمكن التطلع الى أساس نفسانى تقوم عليه الوحدة الانسانية الا اذا عرفنا أن الحياة الانسانية روحية .

ويقرر الاسلام أن أصل الوحدة الانسانية فى التوحيد . ان أصل الحياة كلها دائم يتجلى فى مظاهر متغيرة . والجماعة القائمة على هذا الأصل ينبغى أن تجمع فى نفسها هاتين الصفتين ، الدوام والتغير . ومن يتصور الأصول الدائمة الأبدية غير قابلة التغير فقد وقف ماهو متحرك بطبيعته . »

ومعنى هذه الفقرات التى نقلتها عن اقبال ان حياة الانسان لا تحددها أنساب ، ولكنها قائمة على أصول روحية بها وحدة الانسان ، وأن هذه الحياة الروحية دائمة فى أصلها متغيرة فى مظاهرها . فالجماعة الانسانية ينبغى أن تقوم على أصول دائمة من عقائدها وسننها ، متغيرة فى مظاهرها وأحوالها .

ثم يقول :

« والحركة فى الجماعة الاسلامية بالاجتهاد . ويؤسفنا أن هذا الأصل الذى يهب الأمة الحياة لم يعمل عمله فى المسلمين . ان من أقوى أسباب ضعف المسلمين اهمال هذا الأصل ، أعنى ابطال الاجتهاد . »

ثم يتكلم اقبال عن الاجماع أصلا من أصول الشرع الاسلامى . فيقول:

« والأصل الثالث من أصول الشرع الاجماع . وهو عندى أعظم السنن الشرعية . وعجيب أن هذه السنة الرشيدة نالت كثيرا من بحث المسلمين وجدالهم ، ولكنها لم تعد التفكير الى العمل . وقلما صارت سنة عملية

فى بلد اسلامى . ولعل اتخاذها سنة دائمة ونظاما محكما لم يلائم مطامع الملك المطلق الذى نشأ فى الاسلام بعد الخلفـــاء الراشدين . ولعل ترك الاجتهاد لأفراد من المجتهدين كان أقرب الى منافع الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ، من تأليف جماعة دائمة عسى أن تفوقهم قوة .

ومما يبعث على الرضا والأمل أن سيرة الحوادث فى هـــذا العصر ، وتجاريب أمم أوربا ، أثمرت الفكر المسلم الحديث بقيمة الاجماع وعرفته أنه ممكن . وشيوع النزعة الجمهورية ، ونشوء مجالس التشريع ، يمهدان السبيل الى العمل بسنة الاجماع . »

ز ــ وفى المحاضرة السابعة « هل التدين ممكن ؟ »

يقول اقبال : ذلكم سؤال يشغل الانســان فى كل عصر ولا ســيما فى عصرنا ، والعالم كله يلتمس أساسا يبنى عليه وئام الناس وسلامتهم .

ويقول :

« ان الدين فى أعلى صوره ، ليس أحكاما جامدة ، ولا كهنوتية ، ولا أذكارا . ولا يتيسر الا بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله اياه تقدم العلوم فى عصرنا . والدين وحده يرد اليه الايمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب شخصية فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة .

ولا بد للانسان من الارتقاء الى تصور جديد لماضيه ومستقبله ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصــادم ، ويقهر هذه المدنيــة التى فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطنى بين الدين والمطامع السياسية .

والحق أن سير الدين والعلم ، على اختلاف وسائلهما ، ينتهى الى غاية

واحدة ، بل الدين أكثر من العلم اهتماما ببلوغ الحقيقة الكبرى . ا هـ

***

هذه نظرة عاجلة فى بعض ما حوته هذه المحـاضرات . وهى جديرة بعناية من تعنيهم أحوال المسلمين فى هذا العصر[1] .

— ٣ —

أثر اقبال فى افكار المسلمين

فى الخمس عشرة سنة التى مضت من وفاة اقبال الى يومنا هذا ، ألفت كتب باللغة الأردية والانكليزية فى سيرته وفلسفته ، وفى صلة هذه الفلسفة بالاسلام ، وبيان التشـابه بين اقبـال وبين فلاسفة آخرين أو بين شعره وشعر غيره من كبار الشعراء . كتب فى هذه الموضوعات زهاء أربعين كتابا .

وكتبت مقالات كثيرة . وتنشر فى لاهور مجـلة اسمها اقبـال تنشر مقالات بالأردية والانكليزية فى فلسفة اقبال وشعره

تجد فى هذه المجلة مثل هذه المقالات :

التطور فى فلسفة اقبال

الفن فى مذهب اقبال

ابليس فى تصور اقبال

فلسفة الذاتية عند اقبال

اقبال ومسألة الاجتهاد

معنى العشق فى شعر اقبال

معنى الفقر فى شعر اقبال

ولا نكاد تخلو مجلة أدبية فى باكستان من مقال عن اقبال

(١) ترجم صديقى الاستاذ عباس محمود هذه المحاضرات الى العربية ، ويرجى ان تطبع قريبا

وفى يدى الآن مجلة باكستان[1] ، عدد نيسان ، وفيه هذه المقالات .

اقبال شاعر الاسلام ـ اقبال رسالة أمل مشرق ـ اقبال والوطنية ـ اقبال الشاعر الفيلسوف ـ بَيت" من شعر اقبال ـ اقبال ومسجد قرطبة.

***

ونجد الكتاب يبينون عن آراء اقبال اجمالا وتفصيلا ويستشهدون بما كتب فى الفلسفة ، وبما جاء فى شعره . وشعره فصول فلسفية فى صورة شعرية كالاسرار والرموز اللذين أجملتهما آنفا ، أو شعر يتضمن فكرا متفرقة من فلسفته،ولمعا مختلفة من آرائه ينظمها الكتّاب بعضها الى بعض ليبيّنوا المذهب الذى نشأت عنه هذه الأقوال .

عرض هذا الشاعر الفيلسوف على العقول ما أيقظها وشغلها ، وعلى القلوب ما أنبضها وأثارها .

ولا يزال الباحثون يجدون فى فلسفته وشعره ما يشغل أقلامهم ، ويملأ صحفهم على كثرة ما كتبوا . فماذا عسى أن أفصّل من فلسفة اقبال ، وكيف أحاول الاحاطة بها فى كتاب هو أول ما كتب فى لغتنا العربية عن هذا الشاعر ، سيرته وفلسفته وشعره .

وانما قصدت الى أن يكون هذا الكتاب مقدمة لقراءة دواوين اقبال التى ترجمتها الى العربية ما طبع منها وما يطبع ان شاء الله .

وقد كتبت لهذه الدواوين مقدمات فيها طرَف من فلسفة اقبال ولا سيما الآراء التى هى موضوع الديوان . فلعل القارىء المتقصى يضم هذه المقدمات الى هذا الكتاب ليتبين سيرة اقبال وفلسفته .

---

(1) Pakistan Review

الفصل الخامس

اجابة اقبال المعترضين على فلسفته فى اوربا

ترجم الاستاذ نكلسون منظومة أسرار خودى الى الانجليزية وكتب لها مقدمة أثبت فيها ما كتبه اقبال اليه ايضاحا لفلسفته [1] فاهتم بها بعض المتفلسفين هناك .

وكتب بعضهم نقدا لآراء اقبال . واعترض بعضهم على فلسفته بأنها فلسفة قائمة على تعظيم القوة والدعوة اليها ، كفلسفة نطشه الفيلسوف الالمانى ، وبأنها فلسفة ليست انسانية عامة ، بل تخاطب أمة من الناس هى أمة المسلمين .

وأجاب اقبال موضحا مذهبه ، رادا على من قرنوه بنطشه ومن عابوا على فلسفته أنها تخص المسلمين .

وأجمع جواب فى هذا الموضوع ما كتبه اقبال الى الأستاذ نكلسون . فسأكتفى به ، ثم أكتفى منه بخلاصته :

يبدأ اقبال الكتاب بالأعراب عن سروره باهتمام المفكرين بكتابه حين ترجم الى الانكليزية .

ثم يقول ان بعض النقادالانكليز رأوا مشابهة ظاهرية بين أفكاره وأفكار نطشه فوقعوا فى غلط كبير . ويرد على من زعم أنه أخذ نظرية الانسان الكامل من نظرية نطشه فى الانسان الذى سماه فوق البشر (Superman)

---

(1) سبق هذا فى الفصل الاول من هذا الباب .

ويقول انه كتب قبل ثلاثين سنة ، مقالا عن الانســــان الكامل عند الصوفية ولم يكن حينئذ اطلع على كتب نطشه ولا سمع باسمه .

ويمضى اقبال الى أن يقول فى خطابه الى الاستاذ نكلسون :

أعجبنى نقــد دِكستن أكثر من كل نقد فأنا أعالج المســـائل الآتية فى نقده :

(١) المسألة الأولى :

يتبيّن مما كتبه مستر دِكستن الى أنه يرى أنى أحث على السعى الى القوة المادية بل أبلغ فى تعظيمها درجة العبادة . والحق أن هذا غلط محض. فدعوتى الى القوة الروحية لا القوة المادية .

أرى أن محاربة أمة أمة لحماية الحق والخير فرض أخلاقى عليها ولكن محاربتها لأجل « جوع الأرض » حرام فى رأيى[1] .

وحق قول دِكستن ان الحرب مدمّرة ســواء أكانت لنصرة الحق أم لبسط السلطان فيجب تجنب الحرب ، ولكن التجارب ترينا أن المؤتمرات، والمعــاهدات ووسائل أخرى لا تمنع الحرب . وان مُنعت الحرب ظاهرا بأحدى الوسائل اتخذت الأمم ذوات المطامع ذرائع أخرى لاستعباد أمم أضعف منها . فلا بد لنا من شخص يحل مشاكلنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويفصل فى خصوماتنا بالعدل ويقيم الأخلاق الدولية على قواعد أثبت وأمتن[2]

(٢) المسألة الثانية :

---

(١) انظر اسرار خودى ، والفصل الثانى من هذا الباب ص ٨٦ وما بعدها
(٢) انظر فصل النيابة الالهية فى اسرار خودى وفى هذا الكتاب ص ٥٩ وص ٨٤

ثم يذكر د ِكسن فلسفة الكدح التى تدعو الى الرجولة والصلابة، وهذه الدعوة قائمة على معنى الحقيقة الذى بينته فى المنظومة • أرى أن الحقيقة هى مجموعة الشخصيات أو «الذاتيات» وأن تأليفها الاجتماعى ينشأ من الجلاد • ومن هذا الجلاد ينشأ الانتظام والائتلاف آخرا •

هذا الجلاد ضرورى للبقاء الشخصى وهو أعلى درجات الحياة

نطشه ينكر البقاء الشخصي • وغلطه فى هذا نتيجة غلطه فى تصور الزمان أو الدهر • هو لم يبحث فى مسألة الزمان من الجانب الانسانى •• وأنا ، على خلافه ، أعتقد أن البقاء الشخصي أعظم الآمال ولا بد له من الجد والجهد الكاملين • لهذا دعوت الى الحركة والجد والكدح وكل ضروب العمل ، بل الحرب ، حتى تستحكم الذات • ولهذا نهيت كل النهى عن جمود الصوفية ، وسكون الرهبان •

وهذا الجلاد الذى أدعو اليه هو فى حقيقته أخلاقى لا سياسى • ولم يقصد نطشه الا الى معناه السياسى •

(٣) المسألة الثالثة :

واعترض مستر د ِكسن على فلسفتى بأن دائرتها محدودة وان كانت أصولها عامة (يعنى أن اقبالا خاطب المسلمين ، وطبق فلسفته عليهم وحدهم) •

حق أن الفلسفة والشعر ينبغى أن تكون لهما مقاصد انسانية عامة ، ولكن هذه المقاصد اذا أريد تحقيقها فى أعمال الحياة لم يكن بد من تحقيقها أول الأمر فى جماعة بعينها لها مسلك معين ومذهب

مستقل ، ولكن طرائقها فى العمل تتسع بالدعوة والتبليغ الى غير نهاية . وعندى أن هذه الجماعة هى الأمة الاسلامية . فالاسلام عدو لعصبيات الألوان والأجناس . وهى أصعب العقبات فى سبيل اتحاد أمم العالم . ــ قد غلط رينان حين قال ان الاسلام والعلم ضداذ . والحق أن الاسلام وعصبية الأقوام لا يجتمعان ــ ان أكبر أعداء الاسلام ، بل الانسانية ، هذه العصبية . فعلى محبّى الانسانية أن يجاهدوا جهد طاقتهم هذه العصبية التى اخترعها ابليس .

قد رأيت أن عالم الاسلام كذلك سرت فيه القومية والوطنية القائمتان على عصبيّة الأمة والوطن . ورأيت المسلمين يَغفلون عن مقاصدهم العامة، ويقعون فى شباك القومية والوطنية فرأيت فرضا علىّ ، بأنى مسلم أو محب للانسانية ، أن أوجّههم الى مقاصدهم الحق .

لا أنكر أن عصبيات القبائل والأمم نافعة ، الى حين ، فى نشوء الحياة الاجتماعية وارتقائها ، فلست أعترض على الاهتمام بهذه العصبيات من هذه الجهة ، ولكن اذا عُدّت القومية أعلى درجات الرقىّ الانسانى فهى عندى أكبر لعنة على الانسانية .

لا ريب أنى أحب الاسلام وأهيم بحبّه ، ولكنّ خطأ قول دِكسن أنى خصصت المسلمين بكلامى عصبيةً لوطن أو أمة . لم يكن لى وسيلة أخرى لتطبيق هذه الفلسفة . اذ رأيت الجماعة الاسلامية أكثر الجماعات ملاءمة لمقصدى .

ثم الاسلام ليس من الضيق كما يتوهم دِكسن . فالتعليم الاسلامى لا يخصّ قبيلا دون قبيل ، ولكن يقصد الى أخوّة البشر كافة . فهو يدعو الناس أجمعين الى التعاون والتآخى ، وأن يُغفل فى هذه السبيل ما بينهم من اختلاف جزئى .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . »

وأكبر الظن أن مستر دكنسن لا يزال فى أسر الوهم القديم ، وهم أهل أوربا أن الاسلام يدعو الى القتل وسفك الدماء . والحق أن سلطان الله على الأرض ، لا يخص المسلمين بل يمكن أن يعم الناس أجمعين ، على أن يتركوا عبادة الأصنام ، أصنام النسب واللون والقوم والوطن . لا تستطيع اسعاد الناس معاهدات الصلح ومجالس الأمم ، وأوامر الملوك . لن يستطاع هذا الا بالاعتراف بحرية الناس وتساويهم دون نظر الى نسب أو وطن ...

لا أنكر أن المسلمين كغيرهم خاصموا وحاربوا وسخروا الأقطار ، وأن بعض سلاطينهم ألبسوا مطامعهم لباس الدين ، ولكننى على يقين أن الفتح والتسخير ليسا من مقاصد الاسلام ، بل أعتقد أن الفتوح عاقت نماء النظام المبارك ، نظام الشورى الذى نجد أصوله فى القرآن والحديث . ولم يكن للمسلمين بد من اقامة الممالك العظيمة فى أرجاء الأرض ، ولكنهم اضطروا فى سبيلها الى العدول عن بعض سننهم القويمة . وغلب على أغراضهم السياسية مسحة غير اسلامية . فأغمضوا عيونهم عن سعة المقاصد الاسلامية وعمومها .

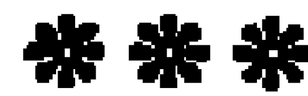
لا ريب أن الاسلام قصد الى دخول الناس فيه ولكن دون اكراه ... ان العقائد الاسلامية يسيرة معقولة . فهى توافق العقل السليم ، وتسلم من تعقيد الفلسفة .

ان فى فطرة الاسلام مزايا تيسر له أن يبلغ أوج الظفر . انظر الى الصين مثلا ، فيها من المسلمين عشرات الملايين دخلوا فى الاسلام بالدعوة ، وما كان للمسلمين فى الصين سلطان سياسى . وفى هذا برهان على أن الاسلام يفتح القلوب بغير سلطان سياسى ودون اكراه .

قد طالعت فلسفة العالم أكثر من عشرين سنة ففى وسعى أن أدلى برأيى بريئا من التعصب . وأن أنقد حوادث العالم غير متحيّز .

انى أقصد فى دواوينى الى أن أضع أمام أعين الناس مثلا عالية عمرانية شاملة ، ولكنى لم أستطع حين صوّرت هذه المقاصد ، أن أغضّ البصر عن نظام اجتماعى مقصدُه أن يمحو بين الناس فروق الأشخاص والدرجات والانساب والألوان ، ودعوته أن يعمل الانسان لدنياه ويعلو على مطامع هذه الدنيـا ما استطاع ولا يرجو الا رضـاء الله . ان الاسـلام يدعو الى أن يأخذ الانسان نصيبه من الدنيا ثم يدعو أن تهجر كل لذّات الدنيا فى سبيل مقاصد الحياة العليا .

وان أوربا محرومة من هذا التعليم ، هذا الكنز الثمين . وتستطيع أن تأخذ عنّا هذا المتاع النفيس الذى لا يتقوّم .



ثم مسألة أخرى أختم بها : ان الأقوال التى بعثتها اليك فأدرجتَها فى مقدمة أسرار خودى . قد بيّنت مذهبى فى ضـوء آراء مفكرى الغرب ومذاهبهم . وانما اخترت هـذه الطريقة لأيسّر لقرّاء الانكليزية فقـه آرائى . ولو شئت لاستشهدت بالقرآن الحـكيم ، وأقوال الصـوفية الكرام . وحكماء المسلمين ، كما فعلت فى المقدمة التى أثبتها فى الطبعـة الأولى لأسرار خودى .

انى أدّعى أن فلسفة أسرار خودى مأخوذة من آراء صوفية المسلمين وحكمائهم ، وأنّ أبحاث برجسان[1] فى الزمان والوقت ليست جـديدة

(1) Bergson

عند صوفيتنا . قد بيّنت هذه المسائل فى كتب التصوف بطرائق مختلفة .

القرآن المجيد ليس كتاب فلسفة أو الاهيات ، ولكن فيه هدى الى مقاصد الحياة ورقيها ، وفيه أصول فلسفية يقينية . ولو أن مسلما متفلسفا بيّن المسائل القرآنية فى ضوء الأفكار والتجارب الحديثة ماصح اتهامه بأنه يقدم شرابا جديدا فى زجاجة قديمة ، كما يقول مستر د كسن . أنا لا أعرض أفكارا جديدة فى ثياب قديمة ولكنى أبيّن حقائق قديمة فى ضوء الأفكار الجديدة .

ما أشد أسفى لجهل أهل الغرب الاسلام والفلسفة الاسلامية !

ليت الفرصة تتاح لى فأكتب فى هذا الموضوع كتابا ضخما فأعلم حكماء الغرب الحقيقة فيروا مقدار التشابه بين فلسفتنا وفلسفتهم .

الباب الثالث

شعر اقبال

أنظر فى هذا الباب نظرات فى دواوين اقبال وما فيها من فنون شعر . وغنى عن البيان أنى لا أفصل القول فى اللغة والتركيب والأسلوب اذ كان هذا كتابا لقراء العربية الذين لا يقرءون دواوين الشاعر فى لغتيها الأردية والفارسية .

فسأقصر كلامى على تعداد دواوين اقبال وذكر موضوعاتها اجمالا ، وعلى مذهب اقبال فى الفنون الجميلة عامة والشعر خاصة وعلى نظرات عاجلة فى شعره .

وأقسم هذا الباب على هذه الفصول :

الاول : دواوين اقبال

والثانى : مذاهب النقاد ومذهب اقبال فى الفنون الجميلة

والثالث : مذهب اقبال فى الشعر ، وبيان هذا المذهب فى شعره

والرابع : شعر اقبال ، موضوعه وأشكاله وأساليبه ، ولغته .

والخامس : أمثلة من شعر اقبال

الفصل الأول

دواوين اقبال

أقصد فى هذا الفصل الى تعريف القارىء بدواوين اقبال ، موضوعاتها ومقاصدها ولغاتها وأزمنتها ، دون تفصيل فيما تحويه من فلسفة وشعر . وأجعل هذا التعريف تمهيدا للكلام فى شعره .

والتعريف بهذه الدواوين على ترتيب زمانها . وليس من مقصدى ، ولا فى مكنتى أن أنظر فى تطور أفكار اقبال على الزمن . فهو موضوع يقتضى بحثا مطولا فى كتاب كبير .

— ١ —

بانك درا
(فى اللغة الاردية)

ديوان بانك درا (صلصلة الجرس) نشر أول مرة سنة ١٩٢٤ م . ونشر الشاعر قبل هذه السنة منظومتى الأسرار والرموز وبيام مشرق ، ولكنى بدأت بهذا الديوان بما يحوى شعر الصبا الذى نظمه قبل هاتين المنظومتين وغيرهما .

وقد عرفنا الشاعر بتاريخ القصائد فى هذا الديوان اجمالا اذ قسمه هذه الاقسام :

القسم الأول الى سنة ١٩٠٥ . وفيه زهاء ستين قصيدة وقطعة ، نظمها منذ شرع ينظم الشعر الى أن سافر الى أوربا سنة ١٩٠٥ م كما قدمت فى سيرته .

وفى هذا القسم قصائد قومية ووطنية ، الى قصائد اسلامية وانسانية.

والقسم الثانى من ١٩٠٥ م — ١٩٠٨ .

وهو ما أنشأه فى أوربا حينما ذهب اليها للدرس كما بينت فى سيرته .

وهو زهاء ثلاثين قصيدة وقطعة . وهذا القسم جدير بالعناية بما يُبين عن شعور الشاعر أول عهده بالاقامة فى أوربا ، ورؤيته حضارتها فى مواطنها على اختلاف وجوهها ، وتعدد مظاهرها .

والقسم الثالث من ١٩٠٨م الى أن نشر الكتاب سنة ١٩٢٤ وفيه زهاء ثمانين قصيدة وقطعة .

وآخر القصائد الطوال فى هذا القسم قصيدتان عنوانهما : «خضر راه» و « طلوع الاسلام » أنشد الأولى فى احتفال « أنجمن حمايت اسلام » سنة ١٩٢٢م والثانية فى احتفال الجمعية نفسها سنة ١٩٢٣م . وقد وصف فى الأولى مصائب المسلمين . وفى الثانية آمالهم . نظر فى الأولى الى ما أصاب الدولة العثمانية فى هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، وفى الثانية الى انتصار الترك فى حرب الاستقلال . لم يذكر الحوادث صراحة ولكن أشار اليها اشارات يدركها القارىء .

فى هذا الديوان شعر لاقبال أنشأ بعضه فى صباه وبعضه فى سن الخمسين . فأى مَراد لقارىء ، وأى مجال لباحث ، هذا الشعر الذى أنشأه شاعر نابغ بين حداثته وكهولته .

— ٢ و ٣ —

اسرار خودى ورموز بى خودى

(اسرار الذاتية ورموز نفى الذاتية)

(فى اللغة الفارسية)

منظومتان على القافية المزدوجة . وهى تسمى المثنوى فى عرف شعراء الفارسية ومن تبعهم من شعراء التركية والأردية .

وهما منظومتان طويلتان يبين فيهما الشاعر فلسفته . وقد عبرتهما مع القارىء فى باب الفلسفة .

نشرت المنظومة الأولى سنة ١٩١٥ ، والثانية بعد ثلاث سنين .

— ٤ —

بيام مشرق « رسالة المشرق »

« فى اللغة الفارسية »

طبع هذا الديوان أول مرة سنة ١٩٢٣ .

وكتب الشاعر فوق عنوان الديوان : « ولله المشرق والمغرب » وكتب تحتـه :

« جواب ديوان الشاعر الألمانى كوته »

وهو روضة من الشعر تختلف أزهارها وثمارها وضروب النبات فيها وألوانه ، وصنوف الريحان فيها وروائحه . جمعت أشتات الزهر ، من المشرق والمغرب .

وفيها الأقسام الآتية :

١ — شقائق الطور ، وهى رباعيات

٢ — الأفكار ، وهى احدى وخمسون قطعة وقصيدة

٣ — الخمر الباقية ، وهى قصائد صوفية رمزية من الضرب الذى يسمى فى اصطلاح الأدب الفارسى غزلا . وهو غير الاصطلاح العربى . والغزل فى اصطلاح شعراء الفرس أبيات قليلة لا يلتزم فيها الشاعر موضوعا واحدا . وعدد الغزليات فى هذا القسم خمس وأربعون .

٤ ـ نقش الفرنج ، وهى أربع وعشرون قطعة وقصيدة يذكر فيها اقبال بعض شعراء أوربا وفلاسفتها وينقد مذاهبهم وآراءهم فيقبل منها ويرد .

٥ ـ الدقائق ، وهى قطع صغيرة وأبيات مفردة ألحقها بالديوان .

وقد ترجمت هذا الديوان الى العربية . وطبع فى كراجى قبل ثلاث سنين .

— ٥ —

زبور عجم

(باللغة الفارسية)

نشره سنة ١٩٢٩ م . وهو من أجود شعره ، وأدقه معنى ، وأبعده مرمى .

صدره بكلمة الى القراء يقول فيها :

« تحجب عينى شعرة حينا ، وترى عينى العالمين حينا . ان وادى العشق سحيق وطويل ، ولكن طريق مائة سنة تنطوى بآهة حينا . جد ولا يهن أملك وعزمك . فرب سعادة تواتى على قارعة الطريق حينا » .

وهذا الديوان أربعة أقسام :

الأول فيه دعاء وست وستون قطعة أكثرها بدون عنوان

والثانى فيه خمس وسبعون قطعة تقل فيها العناوين أيضا .

والثالث حديقة السر الجديدة (كلشن راز جديد) وهو على طبقة (كلشن راز) الذى ألفه الشيخ محمود الشبسترى اجابة لأسئلة فى التصوف أرسلها اليه بعض الصوفية . ولهذا سمى اقبال منظومته (كلشن راز جديد) .

وفيه يجيب اقبال تسعة أسئلة فيها دقائق فلسفية وصوفيّة .

السؤال الأول مثلا :

« أنا في حيرة من فكري . ما الشيء الذي يسمّى فكرا ؟
أيّ فكر يدلّنا على الطريق ؟ لماذا تكون الطاعة حينا ، والمعصية حينا . »

والسؤال التاسع :

من الذي انتهى الى سرّ الوحدة ؟ وما الذي انتهت اليه معرفة العارف؟

والقسم الرابع من هذا الديوان : « كتاب العبودية »

بيّن فيه آثار العبودية في الحياة ، والفنون الجميلة، على مذهبه المعروف. هذه الأقسام كلها تُعرف باسم زبور عجم . وقد جمعت في مجلد واحد عليه هذا العنوان ، ولكن يتبين من العناوين الداخلة أن القسمين الأولين هما زبور العجم ، وألحق بهما القسمان الأخيران بعنوانين منفصلين .

— ٦ —

جاويد نامه

(بالفارسية)

وديوان جاويد نامه طبع سنة ١٩٣٢ ، ومعناه الكتاب الخالد ، وفيه تورية الى جاويد ابن الشاعر .

وهو منظومة مزدوجة القافية (مثنويّة) في بحر واحد هو الرمل مثل منظومتي الأسرار والرموز . وهي من أعمق شعره ، يحتاج قارئها الى زاد كثير من المعرفة بالتصوف والفلسفة والتاريخ .

وجاويد نامه قصة سفر في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الايطالي ، فيها زهاء ألفي بيت .

للقصة مقدمة فيها مناجاة وفصول أخرى ، الى أن تظهر روح جلال

الدين الرومى صاحب المثنوى المشهور . فيشرح أسرار المعراج . وهو دليل الشاعر فى هذه الرحلة . ثم يأتى زَروان وهو روح الزمان والمكان فيحمل الشاعر ودليله جلال الدين الى العالم العلوى ، فيسبحان فى الأفلاك الستة ، القمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل . ثم فيما وراء الأفلاك . وتختم المنظومة بأبيات كثيرة يخاطب فيها جاويد (ابنه) والجيل الجديد[1]

وفى هذه الأسفار يلقى الشاعر كثيرا من الفلاسفة والصوفية والشعراء والملوك والساسة القدماء والمحدثين .

مثلا يقابل فى فلك القمر جمال الدين الأفغانى وسعيد حليم باشا .

ويلقى فى فلك الزهرة فرعون وكتشنر والمهدى السودانى .

وفى فلك المشترى يلاقى الحلاج والشاعر غالب وقرة العين الطاهرة .

وفيما وراء الأفلاك يرى نطشه الفيلسوف الألمانى والسيد الهمذانى ونادر شاه ، وأحمد شاه الأبدالى والشاعر الهندى برترى هرى .

وكانت هذه المنظومة أول ما فكرت فى ترجمته من دواوين اقبال ، ولكن بدا لى من بعد أن أقدم عليها رسالة المشرق ثم ضرب الكليم ثم الأسرار والرموز .

ولا أدرى متى يتيسر لى ترجمتها والله ولى التيسير .

— ٧ —

مسافر

« باللغة الفارسية »

وفى سنة ١٩٣٤ نشر مسافر (باللغة الفارسية) وهى منظومة مزدوجة (مثنوية) سجل فيها ما جال بفكره ، وجاش فى قلبه حينما سافر الى

---

(١) انظر وصيه اقبال لاحد احبابه بقراءة هذه الابيات ص ٤٣ من هذا الكتاب .

أفغانستان بدعوة من الملك نادر شاه كما قدمت فى الكلام على سيرته .

وخاطب فى هذه المنظومة الملك نادر شاه ، وقبائل الأفغان ، وهو كثير الاعجاب بشجاعتهم وحريتهم .

وكذلك وقف على ضريح الملك بابَر رأس الدولة التيمورية فى الهند ، وهو من أعظم ملوك العالم ، وعلى قبر الشاعر الصوفى الحكيم سنائى . وهو طليعة شعراء التصوف العظام فى اللغة الفارسية . وأدى حق التاريخ بوقفة على قبر السلطان محمود الغزنوى « يمين الدولة وأمين الملة ... محمود بن سبكتكين » وزار أيضا قبر أحمد شاه بابا ، الملقب درانى

وختم المنظومة بأبيات خاطب بها الملك ظاهر شاه ابن نادر شاه . وقد قتل نادر شاه رحمه الله بعد عودة الشاعر من أفغانستان فخلفه ابنه ظاهر شاه .

— ٨ —

بال جبريل (جناح جبريل)

(باللغة الاردية)

نشره سنة ١٩٣٥ م . وفيه هذه الأقسام :

١ — احدى وستون قطعة تتناول أفكاره الشائعة فى شعره فى صور شتى ، ورباعيات قليلة .

٢ — وقصائد نظمها فى الأندلس حينما زارها كما بينت فى سيرته .

وهى دعاء فى مسجد قرطبة ، وقصيدة طويلة رائعة فى وصف هذا المسجد ، وقصيدة عن المعتمد بن عباد فى سجنه ، وأول نخلة غرسها عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، وقصيدة عن أسبانيا ، ثم دعاء طارق فى المعركة

٣ ــ ومن عيون القصائد فى القسم الثالث منظومة عنوانها لينين أمام الله . وهى فى صورة قصة تمثيلية ، وأشعار نظمت فى فلسطين ، ومنظومة عنوانها « الملائكة يودعون آدم خارجا من الجنة » ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومى ومريد هندى

وأبيات عنوانها على قبر نابليون ، وأخرى عنوانها مسولينى

٤ ــ وقطع أخرى كثيرة .

— ٩ —

« بس جه بايد كرد اى اقوام شرق »

« ما ينبغى ان نعمل يا امم الشرق »

(باللغة الفارسية)

منظومات مثنوية نشرها سنة ١٩٣٦م بعد أن استولت ايطاليا على الحبشة . ووضع عليها كلها عنوان المنظومة التى ذكر فيها حرب الحبشة وعصبة الأمم . وهو العنوان الذى صدرت به هذه الأسطر ولكن فيها عناوين متعددة فى موضوعات مختلفة مثل :

خطاب الشمس ، الحكمة الكليمية ، الحكمة الفرعونية ، لا الاه الا الله ، الفقر ، الرجل الحر ، فى أسرار الشريعة ، كلمات الى الأمة العربية الخ .

وهذه المنظومات فى جملتها حكمة بالغة ، وشعر بليغ تغنىها الشاعر حين حزنته أحوال المسلمين ، وحزبه ما رأى من فتون الحضارة الأوربية: وضلالها وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمم الضعيفة.

— ١٠ —

ضرب كليم

(باللغة الاردية)

نشره سنة ١٩٣٧ ، ولم ينشر فى حياته ديوان بعده .

وهو ديوان مفصل على أبواب فيها نظرات فى الاســلام ، والتربية ، والمرأة ، والفنون الجميلة والسياسة وغيرها .

فالفلسفة فيها واضحة ظاهرة فى أفكار معينة فى موضوعات محددة ، ودعوة اقبال فيها واضحة .

وهو ثانى دواوين اقبال التى ترجمتها الى العربية . وقد كتبت له مقدمة وافية فليرجع اليه من يشاء .

— ١١ —

ارمغان حجاز « هدية الحجاز »

(باللغتين الفارسية والاردية)

هذا الديوان نشر بعد وفاة الشاعر . فيه آخر أفكاره ، وختام نظراته ، ولكن فيه منظومة مهمة عنوانها مجلس شورى ابليس كتب فوقها « سنة ١٩٣٦ » . ولا أدرى لماذا لم تنشر من قبل فى ضرب كليم الذى نشر سنة ١٩٣٧ . لعل الشاعر لم يجدها ملائمة لهذا الديوان ، وهو آخر مانشر فى حياته فجمعت ، الى مانظم بعد ضرب كليم ، فى هذا الديوان الآخر ، ديوان أرمغان حجاز .

والقسم الفارسي من هذا الديوان ، وهو أكثره ، رباعيات مقسّمة على هذه العناوين :

الى الحق (الله تعالى) ــ الى الرســول ــ الى الأمــة ــ الى العــالم الانسانى ــ الى رفقاء الطريق •

وبين الرباعيات التى جعل عنوانها الى الأمة ، احــدى عشرة رباعيــة يخاطب بها شعراء العرب •

وفى كل قسم من هذه الأقسام عناوين أخرى تتقسّم الرباعيات •

والقسم الأردى- أعظم شأنا :

فيه مجلس شورى ابليس • وهو محــاورة بين ابليس ومشــيريه ، وشكوى بعض المشيرين من الديمقراطية يخافون أن تصلح العالم،وشكوى آخر من الشيوعية ، ومحاورة بين المشيرين ، وجواب ابليس بأنه لا يخشى كل ما ذكروه من المذاهب ، ولكن يخشى الاسلام ان تنبه المسلمون • ففيه دون غيره القضاء على سلطان ابليس •

ومن عيون قصائد هــذا القسم رثاء راس مسعود صديق الشــاعر • وهو رثاء بلغ فيه اقبال من الفلسفة والعاطفة الدرجات العُلَى •

وفى هذا القسم محاورات أخرى • وآخره رباعيات

الفصل الثانى

مذهب اقبال فى الفنون الجميلة

— ١ —

مقـــدمة

للفلاسفة والنقاد مذاهب وآراء فى الفنون الجميـلة عامة وفى الشعر خاصة .

تختلف مذاهبهم وآراؤهم فى قدر الفنون وخطرها ، وتختلف فى مقاصد الفنـون وغاياتهـا ، وتختلف فى مقـاييس الحسن والقبح ، والكمـال والنقص فيها .

وذلكم موضوع واسع مفصل لا يتسع المجال لبحثه كله أو بعضه . فحسبى التمثيل ببعض المذاهب وأصحابها تمهيدا للابانة عن مذهب أقبال :

ا ــ الفن له مقاصد

يرى كثير من النقاد أن الفنون محاكاة الطبيعـة . وأقدم من أثِرت آراؤهم فى هذا ، أفلاطون وأرسطو . قالا ان الفن محاكاة للطبيعة ولكنهما يختلفان فيما بعد هذا .

فأفلاطون يحقر الفنون بأنها محاكاة الطبيعة ، والطبيعة نفسها مظـاهر خادعة أو ظلال لا حقائق لها . ومذهبه فى عالم الحقـائق أو المثل وعالم المادة معروف . ويذم أفلاطون التمثيل لأنه يثير العواطف فيصعب كبحها. ويحقر الشعراء بأن خيالاتهم الكاذبة فى الله والناس سيئة الأثر فى عقول الشبان .

ويستحسن أرسطو الفنون بأنها محاكاة الانســان لأعمال الاله . انها تحاكى الطبيعة والاله هو المحرك الأول لها . ويحمد أرسطو الفن كذلك بما يثير العاطفة ويهذبها فتسهل السيطرة عليها .

ويؤخذ من هذه الكلمات أن الفيلسوفين يقومان الفنون بما تؤدى اليه من خير وشر . فهما ممن يتبعون الفن المقاصد الأخلاقية . وأكثر النقاد على هذا المذهب ، يقومون الفن بأثره فى الانسان وصلته بالأخلاق .

ولأفلاطون خاصة عناية بأثر الفن فى الأخلاق . يرى أن الفن فى مادته وصورته ، ينبغى أن يقصد الى الأخلاق والمعرفة ، وأن سحر الفن ينبغى أن يستعان به على خلق المواطن الصالح .

ويرى أن تحظر الموسيقى الا الألحان التى تدعو الى الشجاعة والاقدام والألحان التى تنبه الأنسان ، ونبث فى نفسه حب الاعتدال والنظام وتقديس الآلهة .

وأما السرور الذى يبعثه الفن فهو يعين العقل على هداية الانسان الى الصراط السوي .

ويذم أفلاطون أصحاب الفنون المفسدين ويوصى بأن ينفوا من البلاد .

كثير من النقاد ، بل أكثرهم ، يوجبون أن يكون للفن مقاصد ، ويقومونه بآثاره فى حياة الانسان . وفى طليعة هؤلاء أفلاطون وفى مؤخرتهم برنارد شو .

منهم من يجعل غاية الفن السرور . ويؤثر عن أرسطو قوله ان الفن محاكاة لها مقصد نفسانى واجتماعى . وهذا المقصد هو اللذة التى تنشأ من انطلاق الانفعال المكظوم .

ويؤثر عن سنت أغسطين فى العصور الوسطى ، أن مقصد الفن خلق الجمال ؛ والجمال هو ما تسر الانسان رؤيته . وذهب هذا المذهب نقاد فى كل عصر حتى عصرنا هذا . ومنهم العالم النفسانى فرويد ، يرى أن الفن يريح فكر الفنان والرائى من التوتر ، بأرضاء الرغبات المكظومة.
والفريق الثانى من القائلين بأن للفن مقاصد ، منهم من يقول أن مقصد

الفن الحياة نفسها . ومنهم قائل ان الفنان معلم . وأعلى مقاصده أن ينبض قلب الانسان . والقلب مركز الحياة . فالفن موصول بحياة الانسان لا محالة ، موصول بكونه المادى والأخلاقى . ويقول آخر ان الفن نقد الحياة . ويقول تلستوى ان مقصد الفن أن ينقل الى النفوس أنبل العواطف وأعلاها .

ويذم الفن الفرنسى فى عصر الانحطاط لأنه يعبر عن عواطف الحكام الأراذل .

ب ـ الفن للفن

فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، انتشرت دعوة الى تقويم الفن بنفسه ، وانكار أن يكون للفنون مقاصد الا نفسها . وقال دعاتها انما يعالج الفن للفن[1] .

وكان من دعاتها فى فرنسا فلوبير وبدلير [2] ، وفى روسيا بشكين وفى انجلترا اسكار وايلد ووالتر پيتر [3] .

وكانت هذه الدعوة فى الحقيقة تطوراً لمذهب الطبيعيين [4]

ومعنى هذه الدعوة أن الفن يقصد لجماله . وأما الحق والخير ومايتصل بهما فليس لها صلة بالفن ، أو هى تابعة وليست المقصد الأصلى ... ليس للفن غاية الا نفسه ، لا يقصد الا اياه .

ليس للفن رسالة الا أن يثير فى النفس الاعجاب بالجمال . وان قصد أمرا آخر كالأخلاق والتعليم والمال والصيت ، وضع هذا القصد من قيمة الفن .

---

(1) L'art Pour L'art

(2) Flaubert, Baudelaire

(3) Oscar Wilde, Walter Peter

(4) RomanTiers

الفن مقصد لا وسيلة . ومن قصد فى الفن الى غير الجمال فليس بفنان . والشىء اذا صار نافعا لم يبق جميلا .

يقول أسكار وايلد :
أول شرط للابتكار أن يدرك النقاد أن عالم الفن وعالم الأخلاق متباينان كل التباين . »

وكانت هذه الدعوة ، من الجهة الاجتماعية ، دعوة الى الفردية المطلقة أنشأت فنونا مدمرة كل الفضائل التى عرفتها العصور الماضية .

جـ ـ اصحاب العبارة

وذاعت قبل هذه الدعوة ، واستمرت بعدها ، دعوة أخرى تشبهها . هى الدعوة الى تقويم الفن بصورته لا بمعناه ، الى تقويم الشعر مثلا بالألفاظ والوزن والأسلوب لا بالموضوع والمعنى . فهى تميز بين القصة ـ مثلا ـ ومعانيها وأشخاصها ، ومسارحها ، وعواطفها ، وبين اللغة والعبارة والسياق والوزن .

وقد ثار من قبل الجدال بين أدبائنا أدباء العرب على البلاغة أهى فى الألفاظ أم فى المعانى . وكتب فى هذا عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة وغيره .

وتذكرنا كلمات ابن خلدون فى مقدمته بدعوى هؤلاء اللفظيين . يقول:

« فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى . فلا نحتاج الى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه . وهو بمثابة القوالب للمعانى . فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد فى نفسه ، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال

تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه ، باعتبار تطبيقه على المقاصد . والمعانى واحدة فى نفسها . »

وقال المتأخرون من أصحاب هذا المذهب :

ليس الاعتبار بما تعبّر عنه بل بما تعبّر به ، ولا قيمة للمعنى بل للأداء فربما تعرب عن قبيح أو جميل ، وعن حق أو باطل ، وعن صواب أو غلط

ولا يدخل شيء من هذه فى تقويم الفن ، ولكن يقوّم الفن بالصورة التى تبين بها عن هذه الأشياء .

قابل هؤلاء شعارَ « الفن للفن » بشعار « العبارة للعبارة »

وكانت هاتان النظريتان شائعتين حينما شرع اقبال ينظم الشعر .

ولكن الشاعر الفيلسوف القوى- لم يبال بهذه ولا تلك كما نرى من بعد .

— ٢ —

مذهب اقبال فى الفنون عامة

أبدأ هذا الفصل بكلمة عالية كتبها اقبال فى مقدمته لديوان غالب المصوّر :

« اذا نظرنا فى تاريخ الثقافة الاسلامية فرأيى أن الفن الاسلامى فيما عدا العمارة (الموسيقى والتصوير بل الشعر) لمّا يولَد ، أعنى الفن الذى يقصد الى أن يتخلق الانسان بأخلاق الله . والذى يُمد- الانسان بإلهام لا ينقطع (أجر غير ممنون) ثم يحقّق له خلافة الله فى الأرض . »

ذلكم طموح اقبال فى الفنون ، وأمله فيها . وذلكم ما اجتهد طول عمره أن يحققه فى شعره ، وفلسفته .

وفى ديوان زبور العجم منظومة طويلة بين فيهـا اقبـال أثر الحـرية والعبودية فى الفنون ، ووصل الفن بقلب الانسان وروحه ، بل وصله بالله تعالى ، اذ جعـل الفنـان الحق هو الذى يسمو بنفسه محاولا أن يتصف بصفات الله .

ويرى القارىء فى هذا الفصل شواهد من هذه المنظومة حين الكلام فى التصوير والموسيقى والعمارة .

يذهب اقبال فى الفنون مذهبا يلائم فلسفته التى أجملتها للقارىء فى هذا الكتاب :

قوام الحياة ، الذاتية . ومقصود الحياة تقوية الذاتيـة وتكميلهـا وشحذها واشعالها . وتقوى الذات من تخليق المقاصد والآمال . والذات بعشق آمالها ، والسير اليها ، واقتحام العقبات من أجلهـا ، واحتقـار الأهوال فى سبلها ، تذلل كل صعب ، وتيسر كل عسـير ، وتدنى كل قصى وتسخر كل شىء .

وقد طبق اقبال مذهبه هذا فى كل شئون الحياة :

ا ــ الخير ما يقوى الذات وينميها ويكملها ، والشر مايضعفها وينقصها. وفى القرآن الكريم : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

وهذا قياس كل شئون الحياة وعقائد الانسان وأعماله :

الدين والفـن والتـدبير والخطب
والشـعر والنثر والتحـرير والكتب
كـل يحيط بمكنـون يضـن به .
فى صـدره يتوارى جـوهر عجب [1]
ان تحفظ «الذات» هذى فالحياة بها
أو قصرت فهى عندى السحر والكذب

---

(1) كل هذه فيها سر يحتفظ به هو حفظ الذات وتقويتها .

كم أمـة تحت هذه الشـمس قد خرجت
اذ جانب الذاتَ فيهـا الدين والأدب

ب ـ والفنون تقوّم بقوة النفس التى أنشأتها ، وقوة ايحائهـا وقوة تأثيرها فى الطبيعة والانسان . كل فن أنشأته نفس ضعيفة ، فكان له فى الناس أثر ضعيف ، أو أنشأته نفس مفسدة شريرة ، فكان له فى النـاس افساد ، فهو فن لا قيمة له ؛ بل هو فن خاسر ، يضر ولا ينفع .
ولا يقوّم الفن بنفسه ، فأن مقصود الفن الحياة .

يقول الشاعر فى المقـدمة القصيرة التى كتبهـا سنة ١٩٢٨ م لديوان الشاعر غالب المصور ، الذى صوره عبد الرحمن چغتاى والمسمّى مرقع چغتائى :

« أرى الفن خادما للحياة والشخصية . أبنت عن هذا الرأى سنة ١٩١٤م فى ديوانى « أسرار خودى » وأوضحته مرة أخرى بعد اثنتى عشرة سنة فى القصيدة الاخيرة من ديوان « زبور العجم » حيث حاولت تصوير روح الفنان الأمثل الذى يتجلّى العشق فيه توحيدا بين الجمال والقوة »

ويقول فى ضرب الكليم :

اذا أضنت الروحَ آلامُ رِق ففنك عَبدٌ رهين سـجود
وان عرفتْ قدرَها كنت حقا على الانس والجن ربَّ الجنود

الخلود للانسـان وللفن بالقوة والحـرية والتأثير فى الحيـاة ، التأثير القوىُّ الحسن ، الذى يقوّى الحياة الضعيفة ويزيد الحياة القوية قوة :

أنت تحت الشـمس تمضى كشرار
لستَ تدرى ما مقـامات الوجـود
ليس فى فنـك للـذات بنـاء
ويحَ تصـوير وشـعر ونشـيد

والفن الذى لا يطبع على الحياة نفسه ، ولا يخلد على الدهر آثاره ليس جديرا باسمه

٣ - مقصد الفن فى الحياة لهيب
أبدى ، فما وميض الشرار ؟
قطر نيسان ! ما اللآلىء ان لم
تتلاطم بها قلوب البحار ؟ [1]
ما نسيم الصباح فى الشعر واللحن
اذا ما أذوى سنا الأزهار ؟
ليس الا الاعجاز يحيى ، ففن
ليس ضرب الكليم فيه ، عوارى

لا فن بغير قوة ولا جمال بغير جلال :

وأرى الجمال جميعه فى أن ترى
فى سجدة للقبوة الأفلاك
ولنغمة من دون نار نفخة
ما الحسن الا بالجلال يشاك

جـ - ويقول اقبال فى مقدمة ديوان غالب :

لعل ايحاء واحدا من نفس مشفقة ، تستطيع اغواء الناس بغنائها أو تصويرها ، شر على الأمة من جيش لآتيله أو جنكيز .

كما قال نبى الاسلام فى امرىء القيس أعظم شعراء الجاهلية : « أشعر الشعراء وقائدهم الى النار . »

---

(١) يقال ان مطر شهر نيسان يسقط قطراته فى الصدف فيخلق فيه الدر . والشاعر يقول ان هذه اللآلىء ان لم تجيش بها قلوب البحار فلا قيمة لها ، فعمل الفنان الذى لا يجيش له قلب العالم ليس بشىء .

وهو ينعى على الهنادك بعدهم فنهم عن الحياة ، واقترانه بالخنوع وتصويره الموت ، وقتله الروح . يقول فى ضرب الكليم :

تخيلهم جنازة كل عشق ... وظلمة فكرهم للحيى قبر
وموثنهم به نقش المنايا [1] ... وليس لفنهم بالعيش خبر .
بنبهم الروح فى ايقاظ جسم ... ودون المجد يسدل منه ستر
يسخر للأنوثة كل شىء ... لهم قصص وتصور وشعر

د ـ والفن الصادق صورة من نفس الفنان ، بل هو مصور بدمه وعصبه .

من حرقة فى دم البانى مشيدة
حانات حافظ اوزونات بهزادا [2]
ما جوهر يتجلى دون مجهدة
من ومضة الفاس ثارت دارفرهادا [3]

و ـ وليس للمقلد فن . انه يبنى أصنامه من حطام أصنام قديمة .

تعس الكافر من أصنامه ... من حطام لمناة واللات
هالك صلى عليه فنه ... فى ظلام اللحد رنو للحياة

هـ ـ محاكاة الطبيعة :

ويرى اقبال أن الفنان ينبغى ألا يحاكى الطبيعة ، بل ينبغى أن يطبع نفسه عليها ، ويصور شعوره فيها . ويقول ان الانسان خلاق لا مقلد ،

---

(١) المولى معبد الاوثان .
(٢) حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى المعروف وبهزاد مصور نابغ عاش فى عصر الصفويين . والزون معرض الدمى والاصنام
(٣) فرهاد مهندس فارسى تحكى أساطير الفرس انه شق فى جبل بيستون قناة لبن ليظفر بحبيبته شيرين كما اقترح عليه كسرى برويز، وله فى الادب الفارسى صيت ذائع .

وصائد لا صيد ، وان أهرام مصر أعظم من الصحراء المحيطة به !

شادت الفطرة كثبانا لها | فى سكون من يباب يتّقد
روّع الأفلاك فيه هرم | أى كف صورت هذا الأبد؟
من اسار الكون حرّر صنعة | صائد ذو الفن أم صيدا يُعد

وفى رسالة المشرق يقف اقبال الانسان أمام خالقه معددا ما فعل فى الأرض :

خلقت الظلام فصغت السراج | وطينا خلقت فصغت الكئوسا
خلقت جبالا وبيدا وروضا | خلقت حدائقها والغروسا

أنا من حجار صنعت مرايا
أنا من سموم صنعت دوايا

ويقول فى ديوان آخر :

ذلك الفنان الذى يزيد على الطبيعة ، ويفشى لأعيننا أسراره ،

حوره من حور الجنة أجمل ، ومن ينكر أصنامه فهو كافر . [1]

وأختم هذه الكلمة بقوله فى مقدمة ديوان غالب :

ان فى سيطرة المرئى على غير المرئى ، وابتغاء ما يسمّى فى العلم ملاءمة الطبيعة ، اعترافا بسيادة الطبيعة على روح الانسان . وانما القوة فى مقاومة تأثيرها لا فى خضوعنا لعملها . ان مقاومة ما هو كائن طلبا لما ينبغى أن يكون ، لهو صحة وحياة . وكل ماعدا هذا علة وموت .

---

(١) يعنى من لا يؤمن بما يحلق هذا الفنان من الصور كافر بالحقيقة .

ان حياة الله تعالى والانسان خلق مستمر . ان الفنان الذى هو نعمة على الانسانية يتحدى الطبيعة . وهو يتخلق بأخلاق الله ، ويشعر فى روحه باتصال الزمان والخلود . هو كما يقول فيتشه : « يرى كل الطبيعة كاملة فسيحة فياضة ، لا كمن يرى الأشياء كلها أصغر ، وأهزل ، وأفرغ مما هى فى حقيقتها . الطبيعة كائنة وعملها تعويق سعينا الى ما ينبغى أن يكون . وهو ما يجب على الفنان أن يجده فى قرارة نفسه . »

و ــ هذا مذهب اقبال فى الفنون عامة ، وأزيد على هذا الأجمال أمثلة من تطبيق فلسفته على بعض آحاد الفنون :

١ ــ المصور ينبغى أن ينشىء ، ويبين عن نفسه ولا يقلد . وقد قلد مصورو الفرس والهند أوربا فأبطلوا فنهم ، ومات خيالهم .

قلدَ الغربَ فنُّ عُجم وهند	عمَّ هذى البلادَ موتُ الخيال[1]
شفنى الغم ، أن بِهزادَ عصرى	يسلب الشرقَ بهجة الآزال[2]
يا خبيرا بفنه فيه تمت	صنعةُ العصر والعصور الخوالى !
كم ترَى من خليقة وترِيها	أرنا الذات فوق كلِّ مجال

ويقول فى منظومته (كتاب العبودية) فى آخر ديوان زبور العجم ، عن التصوير والمصور :

رأيت تصويرا فاترا ، لا ترى فيه ابراهيم ولا آزر (يعنى لا نحت الاصنام ولا تحطيمها) .

ويذكر ضروبا من هذا التصوير الى أن يقول :

ريشة يقطر منها الموت ، ليس فيها الا خرافة الموت وسحره .

ويذكر ثقافة العصر قائلا : العلم الحاضر ساجد للآفلين ، يزيد الشك

(١) ديوان ضرب الكليم ص ٨٩

(٢) البهجه التى عرفت فى صور الشرق من الازل .

ويمحو اليقين . ولا تعرف بغير يقين لذة التحقيق ، ولا بغير يقين تأتى قوة التخليق . من لا يقين له مضطرب رعديد ، يتعذر عليه النقش الجديد . عليل ، من « الذاتية » بعيد ، وهو من ذوق العامة فى قيود . يستجدى الطبيعة الجمال ، وله فى الخيبة مجال .

لا تلتمس الحسن من غير نفسك يامغبون ، واطلب ما يجب أن يكون . اذا أسلم المصور نفسه للطبيعة ، فقد أثبتها ونفى نفسه . وان ظن الانسان نفسه خلاء ، انطفأ نور الله فى ضميره المطفاء . والكليم اذا زال عن نفسه تاه ، وأظلمت يده وعثر بعصاه . لا حياة الا بقوة الاعجاز .

وليس كل انسان يدرك هذا السر .

ويقول :

انما الفنان الذى يزيد على الفطرة ويفشى سره لأعيننا . حوره من حور الجنة أجمل ، ومنكرلاته ومناته كافر . انه يخلق كائنات أخر ، وقلبه بحياة أخرى يزخر . يموج بحره فيلقى الينا بدره . وروحه جياشة فياضة بغثره ، شأنها أن تملأ كل فراغ .فطرته الصافية عيار الحسن والقبح، وصنعته مرآة الحسن والقبيح .هو ابراهيم وهو آذر ، تصنع يده الأصنام وتحطمها . يهدم كل بناء قديم ، ويسلط مبرده على الموجودات كلها الخ[١]

٢ ـ والغناء حلال ان بعث فى النفوس قوة وأملا وبهجة ، وحرام ان بث فيها ضعفا ويأسا وحزنا :

فى صدور الأفلاك لحن خفى صاهر حره نجوم الوجود
قد أحلت (شريعةالذات) لحنا لم نزل فى انتظار شاد مجيد[٢]

---

(١) يحاول ان يسوى العالم بمبرده كما يبرد الصانع الحديد .

(٢) شريعه الذات التى بنا عليها اقبال فلسفته تحل اللحن القوى المستتر فى الطبيعه والذى لا يزال ينتظر من يخرجه للناس

ان سرت فى اللحــون دعــوة موت
حــرّم النــاى عنــدنا والرباب

ولنغمة من دون نار نفخــة ما الحُسن الا بالجلال يحاك

٣ ــ والموسـيقى كذلك . ينبغى أن تبعث فى النفس قوة ووجــدا ، وتسمو بها الى المعالى . فأن لم يكن لها هذا التأثير فى النفس فالمغنى بارد الدم ، وان لم يكن الزامر طاهر الضمير فأنفاسه فى اللحن سموم .

ولا يزال اقبال يفتقد النغمات المحيية ، ويلتمسها فلا يجدها فى الشرق ولا الغرب :

دلّ على برد دم المغنّى لحنٌ له الوجــوه لا تنير ١
أنفــاسُ زامر سـموم لحن ان كان لم يطهــر به ضــمير
بالشرق والغــرب فى رياض من الشقيق شــاقنى المسـير
فمــا مررتُ بينهــا بمــرج شقّت به جيوبهــا الزهور ٢

وفى آخر ديوانه الذى سمّاه « زبور العجم » منظومة مثنوية طويلة سمّاها بندكى نامه (كتاب العبودية) بيّن فيهــا جنــاية العبودية على الحياة كلها ، وفضلَ الحرية عليها . وطبّق رأيه على الفنون فى فصل من المنظومة عنوانه « الفنون الجميلة عند العبيد »

فقال عن الموسيقى :

نغمة العبودية خالية من نار الحياة ، وألحانها مسِفّة مثلها . قلب متجمد

---

(١) ضرب الكليم ص ٩٥
(٢) زهور الشرق والغرب لم يهجها الوجد لتمزق جيوبها كما يفعل من يغلبه الطرب من فرح أو حزن .

لا حرارة فيه ، حرّم لذة الحاضر والمستقبل . يظهر فى مزماره سرّه ، والموت الطويل فى لحنه . انه يتملك ويذلك ، وينفرك من الحياة ويثملك .

احذر فما هذه الا نغمات الموت ، انها الفناء فى لباس الصوت .

الى أن يقول :
لا بد من نغمة ربيبة الجنون ، هى حريق فى شغاف القلب كمين .

ان فى الألحان لمقاما تسمع فيه بغير لفظ الكلام . والنغمة المضيئة هى سراج الفطرة فى كل ظلام ، معناها يخلق كل صورة . وكل ناغم بغيرها جثة هامدة ، ونغماته شرار نار خامدة .

٤ ـ العمارة :

يتكلم عن العمارة فى منظومته فى آخر ديوان زبور العجم التى ذكرتها آنفا فيقول :

اصحب الماضين حينا ، وتأمل فى صنعة الأحرار مليا . وانظر عمل ايبك وسورى [1]

جلّى الأحرار ضمائرهم ، وعرضوا للأعين أنفسهم . فنظموا حجرا الى حجر ، فجمعوا الزمان فى آن .

ان رؤية هذه الصنعة تنضج نفسك ، وترمى بك فى عالم آخر . يهديك النقش الى النقاش ، فاذا سره فى الصنعة فاش .

ويخاطب الشاعر نفسه :

---

(١) قطب الدين ايبك بانى مسجد قوة الاسلام فى دهلى ، وشرشاه سورى احد ملوك الهند

أنا من قسى فى حجاب ، لم أرد فترات الحياة العثباب . كل احكام من اليقين يتبين ، وأين منتى احكام اليقين . ليس فى من « لا الاه الا الله » قوة فلست أهلا للسجود على هذه السدة .

ويدخل الشاعر بهذا القول الى ذكر « تاج محل » معجزة البناء الخالدة فيقول :

« سرح فى هذا الجوهر النظر ، انظر التاج فى ضوء القمر . صوروا من الماء الجارى مرمره ، فجمعوا الأبد هناك فى لمحة .

لقد صرح عشق الرجال بالأسرار ، فثقب بأهداب العين الأحجار . تجلى عشق الرجال فى صوره ، فأثار نغمات من آجره وحجره . وعشق الرجال عيار الجمال ، يشق أستار الحسن ثم يصونه من الابتذال . جازت السموات همته ، وفاتت عالم الكيف والكم عزمته . عىّ البيان عما شعرا فأبدى البناء من ضميره ماستترا .

العشق تصقل العقل يداه ، ويخلق من الحجر مرآة . »

وبختم الفصل بقوله :

الحسن بغير قهر سحر ، وهو مع القهر نبوة . وقد مزج العشق الاثنين فى الأعمال ، وأثار عالما من الجلال فى عالم من الجمال .

الفصل الثالث

مذهب اقبال فى الشعر خاصة

ذكرت آنفا مذهب اقبال فى الفنون عامة ؛ أن لها مقصدا فى حياة الناس، وأن هذا المقصد ينبغى أن يكون تقوية النفس ، وأن الفن تعبير عن نفس قوية لا تحاكى الطبيعة ، ولا تقلد غيرها ، ولكنها تصوغ الفن من دمها ونبضها وتؤثر به فى الحياة .

وفى هذا الفصل أخص بالبيان مذهب اقبال فى الشعر ، وهو فرع من رأيه فى الفنون عامة . واقبال كان شاعرا نابغة . فكان ، لا جرم أكثر عناية بالشعر ، ووجب على من يبين مذهب اقبال فى الفنون الجميلة أن يخص الشعر بالبيان بعد الكلام فى الفنون عامة .

— ١ —

الشعر والحقيقة

الحقيقة ان لم تخالطها العاطفة فهى حكمة . وان قبست من نار القلوب فهى شعر .

يقول اقبال فى رسالة المشرق :

كل حق دون وجد حكمة وهو شعر ان يُصب نار القلوب

وهذا حق . كل حقائق العالم موضوع للشعر ان خالطتها العاطفة ، ولو لها الخيال .

ولا يتسع المجال لتفصيل القول فى هذا . وحسبى أن أقول ان اقبالا

يرى أن حقائق العالم كلها تدخل فى الشعر ان قبست من نيران القلوب . وقد عالج الفلسفة العالية ، وحقائق الحياة فى دواوينه التسعة التى عددتها فى الفصل الأول من هذا الباب .

— ٢ —

الشعر جمال وجلال

ولا غنى للشعر عن أن يكون جمالا وجلالا ، وأن يكون بانيا أو هادما ، وأن يكون هاديا الى كمال أو ثورة على نقص .

لم أدر سرّ الشعر الانكتة　　سيَرَ الشعوب تبينها تفصيلا:
الشعر فيه من الحياة رسالة　　أبدية لا تقبل التبديلا
ان كان من جبريل فيه نغمة　　أو كان فيه صور اسرافيلا

— ٣ —

الشعر حياة وأمل

والصمت خير من شعر لا يبعث فى النفس قوة الحياة ، ونضرة الأمل ، ولا يحدو الناس الى المعالى ، ويحبب اليهم الحياة العزيزة الكريمة .

كم بشعر العجم من سحر ولكن
منه سيفُ الذات ذو حدٍّ كليلُ
صمتُ طير الصبح أولى من غناء
ان سرى باللحن فى الروض ذبول
ليس ضرباً ما يشق الطود ان لم
ترَ منه عرش پرويز يميل [1]

(1) اشارة الى قصة فرهاد الذى شق طريقا فى الجبل كما أمره كسرى پرويز ثم لم يظفر من پرويز بمراده — ضرب الكليم ص ٩٢

لا يعجب الشاعر بشعر العجم على مافيه من سحر وفن لما يرى فيه من الترف ، والهمود ، والاشفاق من مشقات الحياة ، والتشاؤم .

يقول في ضرب كليم [٢]

في غـابة الشرق نايٌ يبتغي نفسـا
ياشاعر الشرق هل في صدرك النفس ؟
من كان في نفسه من رقته خوَر
فقل له من لحون العجم يحترس
اناؤها من زجاج كان أو خزف
اطبع بخمرك سيفا لمعه قبس
لم تبصر الشمس من دنيا يخال بها
مجد بغير الجلاد المرّ يلتمس
طوْر جديد وبرق كلّ آونة
لاقرّب الله للعشاق ما التمسوا

هذه الأبيات عنوانها الشاعر . فهو يريد شاعر الشرق مجاهدا لا يركن الى الترف ، ويريد أن تكون معانيه لامعة قاطعة كالسيف مهما تكن ألفاظها وصورها .

ويريد أن يكون الشاعر داعيا الى المجد ، والمجد لا ينال بغير الجلاد المرّ ، والشعر عدّة هذا الجلاد .

وكذلك يريد الشاعرَ سائرا بآماله الى غير نهاية ، ففي هذا السير توحّى اليه المعاني السَرِبَة ، ويرى كل حين للوحي طوْرا وبرقا . وخير للشاعر ألا يظفر بمطلوبه حتى لا يقف به المسير :

طور جديد وبرق كل آونة لاقرّب الله للعشاق ما التمسوا

---

(٢) ص ٩١

ولهذا أيضا يدعو اقبال شعراء المسلمين الى أن يولّوا وجوههم شطر البيداء حيث السعة والحرارة والريح العاصف ، والى أن ينسبوا بسلمى العرب فى باديتها .

وسيأتى ذكر هذا .

فاذا نفخ الشعر فى النفوس الحياة ، وبعث الانسان فهو وراثة النبوة

ان يكن فى الشعر بَعث الآدمىّ   كان فى الشاعر ميراث النبىّ

— ٤ —

أثر الشاعر فى أمته

يبين اقبال عن آرائه فى الشعر والشاعر فى مواضع كثيرة من شعره أوفاها وأبينها ما كتبه فى فصل من أسرار خودى عنوانه « اصلاح الآداب الاسلامية » . يبين فى هذا الفصل مكانة الشاعر القوى وأثره فى الأمة حياة وأملا وهداية وعملا . كما يبين أثر الشاعر الضعيف فى الأمة ، ترفا وخمودا ويأسا وهلاكا .

وهذه ترجمة أبيات من هذا الفصل فيها وفاء ببيان مذهب الشاعر الفيلسوف محمد اقبال فى الشعر والشعراء :

جلوة الحسن ضميرُ الشاعر   طورُه مَجلى الجمال الباهر
مَدّت الحسن بحسن نظرته   زادت الفطرة سحرا رُقيته
علّم البلبلَ من تلحينه   ضاء خدُّ الورد من تلوينه
مضمرٌ فى خلقه بحر وبرّ   ألف كون محدَث فيه استتر
كم شقيق عنده لم يطلع   كم لحون ، وبكى لم يُسمع
فكره للبدر والنجم نجىّ   يخلق الحسن وفى القبح عيىّ

خَضِرٌ ، في ليله ماء الحيــاة   تَنضُرُ الأكوان من ماء بكاه
لطفت في مســيرنا حيــلته   وعلت في ركبنــا نغمتـــه
فمضى الركبــان اثر الجرس   وحدا الناىُ بنا في الغلَس [1]
وسرت في روضنــا نسـمته   فسرت في زهــرها نفحتـــه

هذا الشاعر الحيُّ الذى يبعث في الأمة الحياة . وشاعر آخر هو حادى الهلاك ، ونذير الموت :

ويل قــوم لهــلاك طــائره   صدَّ عن نهج المعالى شــاعره
تقبح الأشـــكال في مرآته   تقرَّح الأكبـــاد من نفثــاته
تذبل الأزهــار منــه قُبَلا   ويعاف الشدوَ ، منه البلبل
يسلب السروَ جميـــل المَيَل   ويرِدُ الصقر مثل الحجَل [2]
هو حوت نصفــه كالآدمى   كبنات البحــر يقتاد الغوىّ
يسحَرُ الركبان باللحن المبين   ولقاع البحر يهوى بالسفين [3]
يسلب القلب ثبــاتا نغمَــه   ويرى الموتَ حيــاة كَلِمه
يلبس النفع ثيــابَ الضرر   ويرى الخير قبيح المنظـــر
سيلُ برق ما حــوى بُستانه   آل لون وشــذى بستانه [4]
ســادرٌ بالحـق لا يعترف   بحره ما فيــه الا الصـدف
نوَّمَت ألحــانه يقظتنـــا   أطفــأت أنفاســه وقدتنــا

الى أن يقول :

لاح كالنــاى هزيلا صــائحا   شاكىَ الأقدار جهلا،نائحاالخ

ثم يقول بعد وصف الشاعر الفَسل الخائر اليائس ، مبيّنا الطريقةالمثلى في الشعر :

---

(1) جرس القافلة وناى الحادى
(2) يضعف الصقر الجارح مادام هو كالحجلة .
(3) في الاساطير ان بنات البحر تفعل هذا بالسفن .
(4) الآل السراب . اي بستانه سراب من اللون والرائحة .

صيِّر في القول ان تبغ النجاة ... فاجعلن معيـــاره نار الحيـــاة
ليت الفـــكر يقود العمــــلا ... مثلَ برق قبل رعد جلجـلا
مَن بفكر صالح في الأدب ! ... ارجعن يا صاح شطر العرب
وسَليمى العرب ياصاح اعشق ... أطلعن صبح الحجاز المشرق
من رياض العجم جمّعت الزهَر ... وبروض الهند سرحت البصَر
فاشربن حر الصحاري ياصديق ... اشربن من تمرها الراح العتيق
أسلمن رأسك يوما صدرها ... وألقين في حرها صرصرها
كم وطئت الورد في طول المدى ... غاسلا كالورد خدا بالنـــدى
فعلى رمل الصحاري المتضرِّم ... أقدمن يوما وغُص في زمزم
صاح فيم النوح مثل البلبل ؟ ... والأم العيش بين الظـــلل ؟
ابن عشًا حيث لا تَبنى الأنوق ... تلتقى فيـــــه رعود وبروق
لترى أهلا لاعصار الحيـــاة ... وتذيبَ النفس في نار الحياة

وفى فاتحة أسرار خودى يصف نفسه ويقول انه جديد غريب فى هـــذا العالم ، الى أن يقول واصفا مذهبه فى الاعراب عما فى النفس فى صراحة وجرأة وقدرة . وهو فى الحق يصف المثل الأعلى للشاعر كما يتصوره :

أنا فى يأس من الصحب القديم ... متشعل طورى لبغشاه كليم
بحر صحبى قطـــرة لا تزخر ... قطرتى كاليم فيـــه صرصر
من وجود غير هذا لى غناء ... ولركب غير هـــذا لى حداء
كم تجلى شاعر بعد الحِمام ... بوقظ الأعين فينـــا ونـــــام
وجهه من ظلمة الموت سـفر ... ونما من قبره مثلَ الزهَر [1]
كم بهـــذا السهب مرت قافلة ... مثل سير النوق رهوا سابلة
غير أنى عاشق دينى النواح ... ثورة المحشر منى فى الصياح
أنا لحـــن كل عنــــه الوتر ... لا أبالى أن عودى يكسر .

---

(1) يعنى ان كثيرا من الشعراء لم يقدرهم الناس قدرهم ، ويهدوا بهديهم الا بعد الموت ، وكذلك هو . وقد صدقت قوله مكانته اليوم بين مسلمى باكستان والهند

ويقول فى رسالة المشرق ، وهو اعراب عن مذهبه فى الشعر والشاعر :

تغنتى طائر سحرا طويلا ... فأبدع شدوه لحنا وقيلا :
أبِنْ عمّا بصدرك لا تدعه ... غناء أو أنينا أو عويلا

ويقول :

أنا فى الروض منفرد غريب ... على غصنى ألوح مع الرياح
فدعنى يارفيق القلب وابعد ... فأن دمى ليقطر فى نواحى

هذا مذهب اقبال فى الشعر ، ألتقته من أبيات فى دواوينه وكلمات مأثورة عنه.وهى جملة وراءها تفصيل ، وعنوان يتلوه ان شاء الله بيان وفير .

الفصل الرابع

شعر اقبال

معانيه وصوره وأساليبه

— ١ —

وصف اقبال نفسه

يقول الشاعر الملهم فى فاتحة ديوان أسرار خودى :

من وجود غير هذا لى غناء ... ولركب غير هذا لى حداء [1]
أنا لحن كلّ عنه الوتر ... لا أبالى أنْ عودى يتكسّر
لا تعى لجّىَ هذى الأنهر ... لا تعى موجىَ الا أبحر
كم بروق نائمات فى الجَنان ... ضاقت البيد لديها والقنان
ان تكن صحراء فاطلب لجّتى ... أو تكن سيناء فاقبس شعلتى
قد وُهبت الورد من عين الحياة ... وحُبيت السر من عين الحياة [2]
أشعل الذراتِ من لحنى التهاب ... فهى نور طائر يدعى الحَباب [3]
ما ثنا ذا السرّ غيرى فى البشر ... لم يقب لاطمٌ مثلى الدرر

أقبلن ان تبغ عَيش الخالدين
أقبلن ان تبغ مُلك العالمين

---

(١) هذه ابيات مختارة وليست متواليه فى الديوان .

(٢) العانيه مردوفه وهى الاولى عين الماء والثانية بمعنى نفس الشىء .

(٣) الحباب ذبابه ترى بالليل مضيئه . وهى عند اقبال مثال الحياة القويه التى تضىء لنفسها . يكثر ذكرها فى شعره . وهنا يقول ان نار الحانى أحيت الذرة فصارت الطائر الذى يسمى حبابا .

ويكثر اقبال فى شعره أنه عالم بالسر ، وأنه كشفت له أسرار الحياة .

ولا ريب أنه شاعر ملهم ، شعر فى قرارة نفســه أنه أدرك من أسرار الحياة مالم يدرك غيره ، وأنه يبلغ هذا العالم رسالة يؤمن بها اليوم أو غدا ، وأنه شاعر الغد وصوت المستقبل .

وكثيرا ما يقول : ان فى نفسه معانى لا تعيها الكلمـات ، وفى قلبـه أسرارا ليس لها نجى . وقد سأل الله أن يهبه نجيا يعى عنه أو يسلب قلبه النار التى تضطرم فيه .

وفى رسالة المشرق هذه الأبيات بعنوان « الوردة الأولى »

وردة ظهرت فى الروضة قبل غيرها ، فهى تنظر فلا تجد الا نفســها ، فتلتمس نجيا فى صورتها التى يمثلها الماء . وتقول الوردة ان على صفحاتها رسالة خطها القلم الذى صور هذه الحياة ، وأن قلبها فى الماضى ، وعينها الى اليوم ، وأملها فى الغد . فهى صلة الأزمنة الثلاثة .

واليك الأبيات :

لا أرى فى الرياض لى من قريع ... أنا أولى زهور هــذا الربيع
أبتغى فى الغدير صورة نفسى ... لأرى وجه مؤنس ، لى سميع
فى سطورى رسالة من براع ... خط سطر الحياة فى ترصيع
أمس قلبى ، وعبرة اليوم عينى ... وغدى منيتى وكــل بديع

وأنا النجــم خلقته الثريا

نسج الطين ثوب ورد عليا

هكذا تحدث اقبال عن نفسه فهل وفى شعر اقبال بهذه الدعوى ؟ هل حقق هذا الأمل ؟

لا ريب أن اقبـالا أمدَّ الانسانَ عقله وقلبه ويده ، بزاد من الفكر والعشق والأمـل والعمل ، أفاضه شعرا مختلفة طرائقه رائعةً صوَّره فى تسعة دواوين .

— ٢ —

موضوع شعر اقبال

موضوع شعره الحياة والعالم ، يبيّن فيهما الحقائق ، ويكشف الأسرار، ويوقظ الانسان ويدعوه الى قدْر نفسه ، وتقوية ذاته ، ويناديه أنك أعلى الخليقة وأن العالم كله مسخّر لك . وامامه فى هذه الدعوة القرآن الكريم كما فى الآية :

« ولقد كرمنـا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحـر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

والآية : « وسخر لكم ماف السموات وما فى الأرض جميعا منه »
وآيات أخرى كثيرة .
يقول لل مخاطبا الانسان :

ولك الوقت والتصرف فيـه ليس يا غرُّ ا للنجـوم غَناء

———

أين منك الأفلاك ؟ انك حرٌ وهى قهْرٌ ذَهابها والاياب

والجهاد فى هذا العالم لتذليل الطبيعة وتسخيرها هو قوةالذاتورقيّها. والانسان الحرّ أو المؤمن ، يسخّر هذه الكائنـات حتى لا تكون أمامه شيئا ، والانسان العبد ، أو غير المؤمن ، يضل فى الكائنـات ويذل لها . ففرقٌ مابين المؤمن والكافر فى رأى اقبال أن المؤمن يسخّر هذا العـالم ويقتحم عقباته الى مقاصده العليـا ، لا يحار فى الكائنات ولا يضل ، ولا يعيا بتسخيرها ولا يذل .

أنما الكافر حيرانٌ	لـه الأفـاق تيـه
وأرى المـؤمن كـونا	تاهت الآفـاق فيـه

وفرق آخر أن المؤمن أو الحر ، خلاّق مبتكر دائم الأمل والعمل والكافر أو العبد عاجز لا يبتكر ولا يجدّد

يقول فى أسرار خودى :

فكرة العبد حصول الحاصل	ليس فى أفـكاره من طـائل
فى مقـام من همـود راكدْ	نوحه ليـلا وصحبـا واحد
ومن الحـر جـديد الخلقـة	كلّ حين وجـديد النغمـة

وفرق آخر أن العبد يعتل بالقضاء والقدَر ، ويرتبك فى خيوط الزمان أو ينسج شبكة الزمان على نفسه ، والحرُ مشير على القضـاء والقـدر وناسج نفسه على الزمان .

نكتة كالدر خـذها رائقـة	بين حـر ورقيق فارقـه ١
حار عبـد فى فيـافى الزمن	حيَّر الآفـاق قلبُ المـؤمن
ينسج العبـدُ عليـه كفنـا	من صباح ومساء ، مذعنـا
وترى الحر على الترب اعتلى	ناسـجا همتـه فوق المـلا
قيّد العبد صبـاحٌ ومساء	وثوى فى فمه لفظ «القضاء»
لكن الحـر مشيرٌ للقـدر	صوّرت كفاه أحداثَ الدهرَ

***

ويرى اقبال أن المؤمن معيار الخير والشر فى الدنيا والآخرة وأنه بلغ من المكانة أن يسأله ربّه ماذا يرضيك ؟ .

يقول فى ضرب الكليم فى الأبيات التى أولها :

(١) أسرار خودى .

انَّ للمؤمن العظيم الشان كلَّ حين جديدَ شانٍ وآنِ ؛
« لست تدرى بسرِّه فتراه قارئاً وهو صورة القرآن
فيه عزم على القضاء دليل وهو فى العالمَين كالميزان
ليله والنهار لحنُ حياة فى انسجام كسورة الرحمن »

الانسان فى هذا العالم مدرك مفكر حرٌّ . والخلائق مسخرة مجبرة ، يعلى اقبال قدر الانسان ، ويبين فداحة الأعباء التى يحتملها ، ويمدّه من القوة والأمل والعزم بما يؤهله لحمل هذه الأعباء الجسام .

انظر الى قصيدته التى عنوانها « وحدة » فى ديوان رسالة المشرق لترى الانسان يأتى الى البحار مسائلا والى الجبال ويرتقى الى البدر ، ثم ينتهى الى الله ، يسأل أهو وحده صاحب القلب فى هذه الخليقة يحمل الأمانة التى أشفقت منها السموات والأرض والجبال ؟

فلا يردّ البحر والجبل والقمر أسئلته ، ولا يجيبه الله تعالى الا بالابتسام . ولعله ابتسام الاعجاب بهذا المخلوق الكبير .
وستأتى القصيدة فى التمثيل لشعر اقبال .

***

هذه أصول فلسفة اقبال ، وعمدة آرائه ، فالانسان ذاته وقوته وقدرته وحريته وجهاده ، والجماعة التى تتألف من هذا الانسان ، خصائصها ومزاياها ، ومسيرها وغايتها ، وقوتها التى لا تحدّ ، وعزمها الذى لا يبعد عليه أمد ، كل هؤلاء موضوع شعر اقبال . صوّره فأحسن تصويره ، وبثه فى أفكار شتى وصور مختلفة ، جَهدَ الفكر الفيّاض ، والقلب الجيّاش والشعر المتدفق ، والبيان الساحر .

***

والعرب الأولون الذى انتشروا بالاسلام فى أقطار الأرض يدعون الى توحيد الله وتوحيد الأمم ، لا تصدّ عزمهم الصعاب والأهوال ، ولا تعوّق

همتهم بين دانٍ وقاص ، ولا يبالونَ الموت فى سبيل الحق ــ هؤلاء العرب هم مُثُلُ اقبال فى هذه الحياة ، وتصديق فلسفته فيها .

ذكرهم فى شعره تصريحا وتلميحا ، ووفّاهم حقّهم من الاعجاب ، وأبان عن نواحى العظمة فى مآثرهم . وأبان عن حبّه واعجابه واعظامه فى وصف آثارهم كما فى القصيدة الخالدة التى وصف فيها مسجد قرطبة .

ــ ٣ ــ

ضروب هذا الشعر

لهذا الشعر الفياض الذى يسع السموات والأرض ، ويعلو الى ما وراءها ، طرائق مختلفة فى سياق الموضوع ، وفى أشكال المنظومات والأوزان والقوافى .

أ ــ فيه القصص . وأعظم قصصه (جاويد نامه) ، التى قصّ فيها رحلته فى الأفلاك ، كما ذكرت فى الفصل الأول من هذا الباب . وقصص أخرى قصيرة متفرقة فى دواوينه مثل (مجلس شورى ابليس) فى ديوان أرمغان حجاز ، و (لينين فى حضرة الخالق) فى ديوان بال جبريل و (خروج آدم من الجنة) فى الديوان نفسه .

والقصص فى شعر اقبال ، كالقصص فى شعر جلال الدين الرومى ، يتوسل به الى تبيين مقاصد الشعر ، لا يعنى فيه الشاعر بأكثر من الحوار بين من يتكلم على ألسنتهم من أناسىّ القصة .

ب ــ ومن شعر اقبال الشعر التعليمى ، يقصد فيه الى تعليم فلسفته ومذهبه فى نظام شعرى تمتزج فيه الفلسفة والشعر . وأبيّنُ هذا

الشعر المنظومتان اللتان عبَّرتهما عبرا فى الكلام على فلسفة اقبال . ومثلهما منظومات قصيرة فى دواوينه الأخرى ، منها وصاياه الى ابنه جاويد وناشئة هذا الجيل .

جـ ـ والوصف فى شعر هذا الشاعر العظيم كثير ، فيه وصف الطبيعة ووصف الأبنية كما وصف جامع قرطبة ، وتاج محل . والوصف المعنوى يغلب فيه على الوصف الحسى ، يشرع فى وصف الصورة الحسية فتنفتح له عن معان عالية من الفلسفة والشعر يفيض فيها . لا تشغل الصور الحسية هذا الشاعر الروحى كثيرا فانما تثير فى نفسه معانى ينطلق فيها ، وانما هى باب يجوزه الى عالم غير محدود .

د ـ وفى شعر اقبال ضروب الشعر الأخرى التى تسمى فى اصطلاح الأدباء الشعر الغنائى أو الوجدانى . وهى فنون شتى فى معانيها ومنها الضرب الذى كلف به شعراء الفرس ومن تبعهم وسموه غزلا . والغزل أبيات قليلة ، بين سبعة واثنى عشر فى الغالب ، ينظم فيها الشاعر خواطر يجمعها موضوع أو لا يجمعها . وهذه الفنون موصولة فى معانيها بالأقسام الأخرى التى ذكرتها آنفا ، وان فرق بينها هذا التقسيم الصورى . ومن ذا يستطيع تقسيم أمواج البحر بخطوط وحدود .

— ٤ —

الأوزان والقوافى

وأما أوزان شعره فهى الأوزان الفارسية كلها . هى أوزان أخذها شعراء الفرس عن الأوزان العربية . وتصرفوا فيها وزادوا عليها . وليس هذا

موضع الكلام فى أوزان الشعر الفارسى واتصالها بالأوزان العربيـة وسَيْر شعراء التركية والأردية عليها ، واحتذائهم اياها .

والقواف هى القواف الفارسية كذلك . ويكثر فيها الرّدف وهو أن تكرر كلمة فى آخر كل بيت وتلغى فى التقفية . ويلتزم روىٌ قبلها . وقد قدّمت أمثلة منها فى بعض ما ترجمت من شعر اقبال .

وأما أنواع القواف ففيها الرباعيات وهى كثيرة فى دواوين الشـاعر . ومنها الموشحات على النظام المعروف فى الشعر العربى . والشاعر يفتنُ فى القواف الموشحة ، ويصرف الوزن معهـا بالطـول والقصر . وسيجد القارىء مثالا منها من بعد .

ومن شعر اقبال المثنويات . وهى منظومات على القافية المزدوجة وعلى هذه القافية نظم دواوين الأسرار والرموز وجاويد نامه . وكذلك نظم فيها كثيرا من منظوماته فى الدواوين الأخرى .

ومن منظومات اقبال ضروب أخرى على التقفية المعروفة فى القصـائد العربيـة .

هذه نظرة عاجـلة فى ضروب شعر اقبال من حيث السـياق والوزن والقافية .

ولم أرد فيها التفصيل ، لأنى أكتب للقارىء العربى . وليس أمامه شعر الشاعر فى لغته فأطيلَ له البيان فى ضروب الشعر موضـوعه وأشـكاله وأوزانه وقوافيه .

— ٥ —

اللغة والأسلوب

وهذا موضوع لا يعنى القارىء العربىّ كثيرا . فهو لا يقرأ شعر اقبال فى

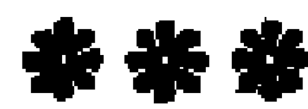
لغتيه الأردية والفارسية ولكن يقرأ ترجمة عربية لبعض دواوينه والترجمة ان حفظت المعنى والصورة لا تحفظ اللغة والأسلوب

وحسبى فى التعريف بلغة اقبال وعبارته وأسلوبه هذه الكلمات :

كتب اقبال باللغتين الأردية والفارسية . ولغته الأولى البنجابية ليست لغة علم وأدب ، والمكتوب فيها قليل من أدب العامة . فاللغة الأردية هى لغته ولغة الأدباء والمتأدبين من مسلمى الهند .

ولغته وأسلوبه فيما أنشأ بالأردية ، يبلغان فى الأصالة والصحة والقوة ما بلغه أكبر شعراء الأردية منذ نشأ الشعر فى هذه اللغة الى أن نبغ اقبال.

والحكم فى لغة الشعر وعبارته وأسلوبه يرد الى ذوق أهل اللغة . ولا يعتد فيه برأى دارسى اللغة من غير أهلها وان بلغوا الغاية فى علمها وفقهها، ودربوا على أساليبها فى شعرها ونثرها . وأدباء الأردية يرون أن شعر اقبال فى جملته يبلغ الذروة من هذه اللغة . ويسامى شعر أعظم شعرائها ، ثم يفوتهم بمعانيه التى لا تحد وفلسفته التى استولى فيها على الأمد .



وأما منظومات اقبال الفارسية فقد أخذ عليها أدباء الفرس مآخذ أجملها ثم أذكر رأيى فيها :

عرفت اللغة الفارسية فى الهند منذ فتح السلطان محمود الغزنوى شمالى الهند فى القرن الرابع الهجرى ، وبلغت مكانة علية أيام المغول فكانت لغة الدولة ولغة العلم والأدب . وقد اجتمع حول جلال الدين أكبر أحد ملوكهم زهاء خمسين شاعرا كلهم ينظم بالفارسية ، منهم من نبغ فى الهند ومنهم من وفد اليها من ايران .

وقد ضعف أمرها بعد اضمحلال الدولة المغولية ولكنهـــا بقيت حتى عصرنا يعرفها المثقفون ، وينظم بها بعض الشعراء ويكتب بهابعض الكتاب. وأعظم من نظم فيها فى هذا العصر محمد اقبال .

وقد أنشأ فيها ستة من دواوينه التسعة ، كما بينت قبلا .

وأخذ بعض أدباء الفرس على الشاعر النابغ هذه المآخذ :

أ ـ أخذ عليه أن لغته وأسلوبه ليسا مطابقين للغة الشعر الفـارسى العصرى وأسلوبه .

ب ـ وأنه يستعمل أحيانا عبارات تخالف الفصيح المأنوس فى الفارسية

جـ ـ وأن له تراكيب لم تؤثر فى الأدب الفارسى من قبل .

وقد أجاب المعترضين ملك الشعراء بهار رحمه الله أحد شعراء الفرس ، ومجتبى المينوى الذى ألف كتابا عن الشاعر اسمه « اقبال اللاهورى » وقد عدد المؤلف فى هذا الكتاب ما أخذ على اقبال وأجاب عليه .

ويبدو أن لهذا الاعتراض سببين الأول أن اقبالا لم ينشـأ فى بيئـة فارسية . فالفارسية ليست لغته ، ولكن اكتسبها بالدرس ، وطول النظر فى دواوين شعرائها . فاستوى عنده ما استعمله شعراء الفرس القـدماء وما استعمله المعاصرون منهم . فرأى بعض النقاد فى بعض شعره مخالفة للغة العصر وأسلوبه .

والثانى أن اللغة الفارسية استوطنت الهند قرونا ، ونشـأ فيها أدباء ونبغ شعراء لهم بيئتهم وأحوالهم . وهى تخالف بيئة شعراء ايران وأحوالهم فنشأت فى الهند لغة أدبية تخالف مخالفة ما لغة الأدب فى ايران .

فأما السبب الأول فلا حرج على اقبال أن يأخذ من كبار شعراء الفارسية فى كل العصور . ويسعه ما وسع هؤلاء الشعراء . ولا يضـيره ألا يكون

شعره مسايرا الشعر الفارسي العصرى كل المسايرة فى لفظه وتركيبه وسياقه .

وأما السبب الثانى ففيه اعتراض باصطلاح بيئة على اصطلاح بيئة أخرى . وقديما قال علماؤنا : لا مشاحة فى الاصطلاح .

وأما أن لشاعرنا العظيم تركيبات لم تؤثر فى الأدب الفارسي فقصاراه أنه ابتكر عبارات فى الفارسية . والرجل له فلسفة مبتكرة ، وآراءمبتدعة روّض لها الشعر وذلّله . فلا عجب أن يضع ألفاظا مفردة لمعان محدثة أو يحرفها عن معانيها قليلا ، ولا غرو أن يصوغ تركيبا أو تعبيرا بِدعا لمعانيه المبتدعة .

ولأقبال الفخر أنه ابتدع وجدّد فى المعانى والألفاظ والعبارات .ويزيده فخرا أنه نقل ألفاظا من معان اباحية مبتذلة تتصل بالخمر والسكر واللهو والخلاعة وما اليها من الألفاظ التى شاعت فى الأدب الفارسي فهوّت به ، نقل هذه الألفاظ الى معان روحية عالية واسعة لا تحدّها حدود المادة . كما ردّ الى معانيها الأولى ألفاظا تجوّز فيها الشعراء فلبّسوا على الناس مذاهبهم كالكفر والدين والدير والحرم والكعبة .

وفضل اقبال الأعظم ، وفخره الأكبر ، أنه أودع اللغة الفارسية هذه الثروة من الفلسفة العالية ، والآراء السديدة ، وذلّلها للشعر ، ويسّرها للمتأدبين . وما أعظم حظ اللغة التى يختارها اقبال لشعره . فهل يؤخذ على مثل هذا الفيلسوف الشاعر أنه خرج بألفاظ عن معانيها ، أو استعمل عبارات غير مألوفة فى لغة العصر ، أو اخترع تركيبات غيرمأنوسة فى الأدب الفارسي . وهل عملُ النابغين الا الخَلق والاختراع والتجديد والتصحيح فى الأفكار العامة ثم فى المعانى الجزئية والألفاظ والأساليب .

ان من يعيبون الشاعر العظيم بهذا يغضّون عن جناته وعيونه ، ويصدفون عن أزهاره ورياحينه ، ولا يبصرون الا شوكة فى غصن ورد أو

ورقة ذابلة فى شجرة ناضرة ، كالذى نظر فى ترجمة رسالة المشرق وضرب الكليم الى العربية فعَبس وبَسر ، وأعرض عن النظم الرائق ، والسبك الرائع ، وذهب يلتمس رباعية جعلتها مثالا للقافية المردوفة فى اللغة الفارسية وأنا أعلم انها غير مألوفة فى العربية . وقال هذه لا تمثل نفس اقبال وكأنى لم أترجم من شعر الشاعر الا هذه الرباعية . وما للانسان حيلة فيمن يرون كلف البدر ولا يبصرون نوره ، والذين يعيبون الجواد المطهم الأشهب بشعرات سود فى ذيله ولا يعجبون بشىء من محاسنه . وليت شعرى متى يقرأ المتأدبون بآداب الاسلام قول القرآن الكريم : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

لقد صدق اقبال حين قال فى رسالة المشرق :

رددت العُجم فتيانا بلحنى ... وراح متاعهم من بعد خسر
وكانوا هائمين بكل واد ... وقافلةٌ نظمتُهمُ بشعرى

بروح العجم من نفسى شرار ... قرعتُ لهم بأجراس فساروا
وعاليت الحداء لهم كعُرفى ... تباطأ محمل ونأت دبار [1]

***

على أن اقبالا يقول فى مقدمة أسرار خودى :

ماقصدت الشعر من هذا الكلم ... نحتَ أصنام وتعظيمَ الصنم
أنا هندى شآنى الفارسىْ ... وهلالٌ أنا ذو جام خلىْ

يقول انه لم يقصد فى هذا الديوان الى الشعر صوره وأخيلته ومبالغاته وانه لا يُحكِم الفارسية ولا يزال هلالا كأسه خالية من الشراب .

وهذا تواضع اقبال . وللأدب رأيه فى الاعتراف بتبريزه فيما نظم من شعر أردى وفارسىْ .

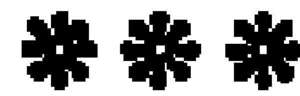
(١) يشير الى بيت للشاعر عرفى الشيرازى معناه : ارفع صوتك بالحداء حين ترى تباطؤ القافلة

الفصل الخامس

أمثلة من شعر محمد اقبال

أقتصر فى التمثيل على ما ترجمتُ نظمــا من دواوينه . والذى ترجمت أربعة دواوين : رسالة المشرق وضرب الكليم ، والأسرار والرموز .

ولا جرم أنه تمثيــل ناقص لا يستوعب دواوين الشــاعر ولكنه يفى بتعريف القــارىء أفكار الشاعر ومذهبه فى الشعر . وكان يسيرا علىّ أن أعرض أمثــــلة منثورة من الدواوين التى لم أترجمهــا أو أنظــم أبياتا قليلة منها للتمثيل ، ولكن الوقت لم يتســع ، ورأيت فى الدواوين الأربعة غُنيةً ، الى أن تُترجَم الدواوين الأخــرى ؛ على أنى نقلت فى الكلام على فلسفته وفى الكلام على مذهبه فى الفنون ، فقرات منثورة من الدواوين الأخرى .



يقول فى شقائق الطور ، وهى الرباعيات من ديوان رسالة المشرق :

له نقش يجـدَّد كــل حين ... فلا تبقى الحيــاة على غِرار
فأن صوَّرتَ يومك مثل أمس ... فما يحوى ترابُك من شرار

وفى الرباعية لمحة الى مذهبه فى التجديد المستمر ، والجهــاد الدائب فى هذه الحياة .

ومن قوله فى غِشيان الأهوال ، وركوب الأخطار :

دع الشُّطآن لا تركن اليهــا ... ضعيفٌ عندها جَرس الحياة
عليك البحر ، صارعْ فيه موجا ... حياةُ الخلد فى نَصَب تواتى

ومن قوله فى حرّية الانسان :

بسلسلة القضاء ربطتَ رجلا   وفى سعة العوالم ضقتَ حالا
فقم ، ان كنت فى ريب،وأقدم   تجدْ للرجل فى الدنيا مجالا

ويقول فى الاستقلال فى الفكر والابتكار فى العمل :

طريقَك فانحتنها فى كفاح   طريقُ سواك مسلكها عذاب
فأن أبدعت فى عمل فرىٌ   ، وان يَكُ مأثما،فلك الثواب

تحذتُ لخلوتى طينى ومائى   وبتُ وعد بين أفلاط وبينى
فلم أستجدِ يوما عينَ غيرى   ولم أر عالمَى الا بعينى

ويقول عن نفسه ويعنى كل شاعر ينفث فى شعره نار الحياة ونورها :

أنا فى الروض منفرد غريب   على غصنى أنوح مع الرياح
فدعنى يارقيق القلب وابعد   فأن دمى ليرشح فى نواحى

فأبلغ شاعر الألوان عنىْ :   لهيبُك كالشقائق لا بضير (1)
فنفسُك لا تذيب بحرِّ نار   ولا ليلا لمحزون تنير

ويقول فى وَلوع الشاعر بالجمال ، واعرابه عن مكنوناته :

أنا فى المرج حديث الطيور   ومقوَل كلِّ برعوم صغير
فأسلمْ للصَّبا تربى بموتى   فمالى غيرُ طوف بالزهور

ويقول فى تطور العالم وتكمّله ، وأنه لا يزال يتهيأ للكمال :

لنا كونٌ لأزميل ونحت   يقلبه صاحك والمساء
مثالٌ من تراب لم يُكمّل   يسوّيه بمبرده القضاء

---

(1) لهيبه حمرة النار ولكن بارد كالشقائق يحسبها ملتهبة وهى زهر .

ويقول فيما أثار بروح الشرق من الوجد والعزم فى شعره :

نفثتُ النار من روحى نفثت بصدر الشرق قلبا قد بعثت
وصيَّر طينَــه لهبــا نواحى كبرق فى سجــايا اه انبعثت

ويقول فى نزوع الخليقة الى الحياة ، وفى لذة القلق والاحتراق فيها • والشاعر يكبر الحياة ويعلى شأنها ويدعو الى قوتها ودوامها :

تقول فراشةٌ من قبل خَلق : أنِلنى لَمحةً قلقَ الحيــاة
رمادى فاذرُه صبْحا ولكن أذِقنى ليــلة حَرَق الحيــاة

ويقول فى الهم الذى يعتلج فى قلبه من أجل المسلمين ، وتأثيره فيهم :

قلوب المسلمين قبسنَ نارى ودمعى من عيونهم هتــون
بروحى محشر قد غاب عنهم فلم تر ما رأيتُ ، لهم عيون

***

وانظر وصفه الربيع فى رسالة المشرق :

هــلمَّ فأن سحــاب الربيــع يخيّم فوق الربَى والوهــاد

وشدوُ العنــادل فى كل واد
وسربُ القطــا سادر فى تهادى
على حافة النهــر جذلى شوادى
شقيق وورد ضحــوك ينــادى
فطرفَك سَرِّح بهــذا المَــراد

هلمَّ فأن سحــاب الربيع يخيّم فوق الربَى والوهــاد

هلم فملء الربى والسهول قوافلُ أزهارها والورودِ
نسيم الربيع على كل عود
وللطير ابداعها فى النشيد
ومزقت الجيبَ حمرُ الخدود [1]
جنى الحسنُ ناضرَ زهر نضيد
وللعشق ابداع نغمٍ جديد

هلم فملء الربى والسهول قوافلُ أزهارها والورود

دع الدُّور واطلب فسيح البرا رىِّ وانظر الى صفحات الجمالِ
على حافة الماء دون ملال
تأمَّل ترقرق ماء زلال
وحَدِّق الى نرجس ذى دلال
بنيّاتُ نيسان ذاتَ اختيال
وقبّل لها أعينا كاللآلى
دع الدُّور واطلب فسيح البرا رىِّ وانظر الى صفحات الجمال
ويختم الموشح بهذه الأبيات :

ترى المرج صرّح فى هيَجه بما أضمرت مهجة الكائنات
فناءُ الصفات وكون الصفات
وما أبدت الذات من جلَوات
وما خلتَه من معالى الحياة
وما خلته من معانى الممات
فليس له ها هنا من ثبات
ترى المرج صرّح فى هيَجه بما أضمرت مهجة الكائنات

---

(١) اى شقائق النعمان .

وهكذا ينتقل من الوصف الحسى الى المعانى التى نظر اليهـا من وراء هذه المحسات

واقرأ هذه الأبيات التى تصوّر مذهبه فى الحيـاة : الفلسفة بغير قلب والفكر بغير عمل موت ، وينبوع الحياة الجدّ والكفاح

وعنوان الأبيات :

الأرَضـة

سـمعت بمكتبى ليـلة يناجى الفراشةَ سوسُ الكتاب:
يقول مررت بكتْب ابن سينا وقبّبْت فى كتْب الفـاريابى
ولم أدر حكمة هذه الحيـاة وما زلت من ظلمتى فى حجاب

تجيب الفراشـة فى حرقة أرى نكتة لا ترى فى كتاب:
رأيت الكفـاح يمِدّ الحيـاة
رأيت الكفـاح يمِدّ الحيـاة

والبراعة فى شعر اقبال صورة الحياة القوية فهى تطير بجناحيها . وتضىء لنفسها لا تستجدى غيرها نورا ، كما يقول على لسانها :

ولا أعشـو الى نيران غيرى كما يهفو الفراش الى الحريق
اذا حلكَ الظـلام كعين ظبى أنرت بنار أضـلاعى طريقى

وهذه أبيات من منظومة فى رسالة المشرق عنوانها :

البراعـة :

وذرّة حقـيرة قـد جمعت قواها
كأنهـا فراشـة من حرَق تصلاها

قد نوّرت دُجاها

فهى أياة خُلّقت ... وانعقدت شرارا [1]
من حرقة فى قلبها ... تحولت تضارا

وبصرا نظّارا

فراشة فى قلق ... تطير كلّ ناحيه
على اللهيب رفرفت ... حتى كأنه هيه

« أنا » و « أنت » قالية [2]

يا مِشعلا للطير فى ... معتكر الظلام
ما حرقة أحسستها ... فأنت فى هُيام ؟

حرارة الأقدام

فالجد والاقدام طارا بالذرة وحوّلاها نارا ونورا .

***

ولا أجد بدًا من اثبات أبيات فى العشق لها متشابه فى شعره . والعشق فى فلسفة اقبال هو الحياة بل نار الحياة . يذكره فى مقابل العقل والعلم . وهما بدونه عجز وحيرة وجبن .

فكرىَ قد أجدّ كلَّ سيْر ... وطاف حول حرم ودير
عدوتُ للطِلاب فى البرارى ... مرتديا بالتّقنع كالاعصار

(1) الاياة الشعاع كأنها شعاع انفصل من الشمس فانعقد فصار شرارا .
(2) تبغى الاتحاد وتعلى الانفصال الذى يكون فيه متكلم ومخاطب ، انا وانت .

بغير خِضر أبتغي المنازل [1] يحمل رحلي للخيال كاهل
تطلب راحاً كأسي الحطيم كالصبح من شباكه النسيم [2]
منطويا كالموج في البحار حيران كالاعصار في الصحارى

هذه الأبيات تصوّر كدّ العقل وسعيه في طلب الحقيقة دون جدوى وفي الأبيات الآتية يصوّر فيض العشق في نفس هذا الطالب ، وفتحه له مغالق الحياة .

في الأبيات الآتية من القصيدة يقول ان العشق فاض بقلبه فأيقظ وجدانه ، ويسّر له كل عسير ، وحلّ له كل عقدة ، ورفعه الى علّيا الدرجات .

عشقك فاض بغتة بقلبي وحلّ كل عقدة في لُبّي
عرّفني الوجود والفناء فصار ذِكري حرَما وضَناء
على حصيدى مرّ كالبروق عرّفني لذاذة الحريق [3]
صُعقت منه وسُلبت حسّي فصِلت من نفسي مثل العكس [4]
رفعت للعرش المعلّى تربي بالسرّ قد أفشيته لقلبي
وبلغتْ سفينتي مرساها وفاض فيحي رونقا وتاها
عندي حديث العشق لا سواه لا أقبل الملام في بلواه

غنيتُ عن ومض العلوم . حسبي
دمعي ووجدي وخفوق قلبي

وهذه قصيدة الوحدة التي يصوّر فيها الشاعر انفراد الانسان في العالم بالعقل والوجدان ، واحتماله الآلام . وأنه لا يجد نجيّا بين هذه الخلائق . كما في القرآن الكريم :

---

(1) بغير دليل ، والخضر دل اسكندر في الظلمات كما في الاساطير .
(2) كأسه تطلب الخمر وهي محطومة لا تمسكه ، كما يريد الصبح ان يحوى الاشياء بشبكة من النسيم .
(3) أحرق ما جمع مه علم وفكر كما يحرق البرق الحصيد وعرفه لذة الاحتراق .
(4) العكس الصورة . واللفظ في الاصل . وفي ايران وبعض البلاد العربية يقال للمصور: عكاس

« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا »

قد قلت للبحـــر يوما في موجـه المتعـالي :
أراك دائبَ سعي فمـا تكنُ ببـــال ؟
كم قد حويت بصـدر من لامعـات اللآلي
أفيـك مثلي صـدرٌ بجـوهر القـلب حالي

فصدّ عنّي بجزر

ولم يردّ سؤالي

وقــلت للطّود يومـا يا خاليـا من عنـاءٍ !
أنال سمعك صـوتٌ من زفـرة وبكـاء ؟
ان كنت تحوي عقيقـا فيـه عروق دمـاء
فواسِني بحـديث اني حـليف شـقاء

فصدّ عنّي بصمت

ولم يردّ سؤالي

جددتُ في السـير حتى أتيت بدر السـمـاء
فقلت : يانِضو سـيْر حتّامَ ذَرْعُ الفضاء ؟
الأرض مَرج زهـور مـن نورك اللألاء
أخلفَ نورك قـلب في حـرقة وعنـاء ؟

رأى الكواكب ترنو

فلم يردّ سؤالي

وقـلت لله ربي من بعد طوف البريّه :
أما بدنيـاك هـذي مـن ذرّة بي حفيّه ؟

أكـلُ طينيَ قـلبٌ وذي البرايا خليـه ؟
طابت مروج ، ولـكن ليست بشدوى حريه

أجابنى بابتسام
ولم يردُ سؤالى

هذه حال الانسان فى العـالم لا يجد شريكا له بين الخـلائق يناجبـه ويواسيه . والله تعالى حجب عنه الأسرار ، ووكله بالكشف عنها .

***

وقصيدة الحور والشاعر التى يعارض بهـا الشـاعر الألمـانى جوته ، تصوِّر مذهب اقبال فى الأمل الدائم ، والجدّ الدائب والسير المستمر فى هذه الحياة .

الحور :

لا الخمـر يوما تطّبيك ولا الينـا ألت ناظـر
عجب لنـا من شـاعر بهوى الأحبة غير شاعر
من حرِّ أنفاس الرجاء وحرقة الطلب المثـابر
نفسٌ تذيب بلوعـة وتغزل يشـجو المزاهر
وخلقتَ بالألحان دنياك العجيبة خلق شـاعر
تبدو بهـا ارم كمـا يبدو لعين سحر ساحر

الشاعر :

ماذا أقـول وفطـرتى لا ترضى دعـة المنـازل
قلبى على قلق كمـا تهفو الصبّا حول الخمائل
فاذا نظرتُ الى جميل فانن حـلو الشـمائل
خفق الفؤاد الى الذى يعلوه حسنا فى المحافل
فمن الشرار الى النجـوم الى الشـموس رُقىّ آمـل
انى ليهلـكنى القـرار ، عما أعوج على المراحـل
واذا شربتُ مـن الربيـع الكاس سرى فى المفاصـل

أشـــدو بشعر محـــدث   وربيـــعَى الأنى أغـــازل
طلبى النهـــاية فى مـــدى   لا ينتهى فيـــه المتســـائل
لاصـــابر لظـــرى ولا   قـــلبى عـــن الآمـــال غافـــل

هذه المعانى صوّرها الشاعر مئات الصور فى دواوينـــه . وقدمت فى تلخيص أسرار خودى فى باب الفلسفة من هذا الكتاب أبياتا وافيـــة فى هذا الشـــأن .

وهذا مثال من قصائد فى رسالة المشرق تسمى الخمر الباقية ، وهى من الضرب الذى يسمى غزلا فى اصـــطلاح الشعر الفارسى ، ويغلب فيهـــا التصوف ، وغموض المعنى ، ولا يلزم فيها وحدة الموضوع .

عقلنـــا ينحت ربًّا كلَّ حين   فهو من قيد الى قيد ، رهين
ارفع الستر جهـــارا لا تبَل   ليس فى حيك غيرى ذو حنين
أنا من عينى غيـــورٌ ناسج   نظراتى لك سترا فى العيـــون
بَسمة خُلْس ودمـــع وِزْنا   ليس فى الحب سواها من يمين
حبذا العشق ففى يوم النوى   زاد باللوعة عهـــدا لا يمين ١
أيها الطائر من قلبى اقتبسَن   لتزيد النـــار فى هـــذا الأنين

ســـادنَ الكعبة لا تأذن له
فلاقبـــال الهٌ كـــلّ حـــين

وهذه أخرى من الخمر الباقية :

فى ذلك الحفل سؤالى   عن محرَم بى حقيـــق
لذاك أزجى غنـــائى   وفيه لحـــن الصديق ٢
بث قـــلبى حديثـــا   بمفـــلتى وبســـوفى
فى خـــلوة كـــلّ لفظ   فيهـــا كســـتر صفيق
مطهـــرٌ نظـــراتى   بدمـــع عين طليـــق

---

(١) لا يكذب . يعنى أن لوعة العاشق يوم الفراق عهد آخر فى الحب لا يكذب .
(٢) هو اللحن الذى يغنيه صديقه الذى يطلبه .

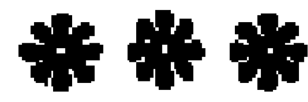
من أجل لظـرة وجـد　　　لوجهـــك المرمـوق
كالـكمّ كـلّ أمورى　　　لعقـــدة ولضيـق ١
لكن الى ضـوء شمس　　　أنمو بقـلب مشـوق

الى أن يقول :

لا أســتريح بعش　　　من لـذة التحليــق
طورا بشـــاطئ نهر　　　طـورا بروض شقيق

واختتم التمثيل فى هذا الضرب ، قصائد الخمر الباقية ، بهذه :

عنـد ليث الربيع جنّ غناءٌ　　　وعروس الشقيق تزهىّ بهاء
لا مغنٍ ولا مزاهر فيــه　　　ذاك لحن من عالم الغيب جاء
محرم السترمن يشدّ ضربا　　　فى وتار الحياة أيان شاء ٢
لا تعتنف وخـذ سبيل وداد　　　قدّر الله فى الحيــاة لقـاء
أين فى دارة التراب مقام ؟　　　كل شىء كالرمل يمضى هباء
زهرةٌ من رياض كشمير جسمى　　　وبأرض الحجاز قلبى أضـاء
وأغانىّ واللحـونُ لمتهـا　　　أرض شيراز حبّ ذاك انتماء ٣



وفى ديوان رسالة المشرق قسم سماه الشاعر نقش الفرنج ، ذكر فيها جماعة من فلاسفة أوربا وشعرائهم .

وهذه أبيـات من هـذا القسم عنوانها (شوبن هاور ونطشـه) الأول الفيلسوف الألمانى المتشـائم الساخط ، والثـانى فيلسوف القوة والأقدام .

شوبن هاور ونطشه

طار من عشـه يسير بروض　　　فأصابته شـوكة من زهـور

(١) الوتار جمع وتر . ومحرم السر أهله .

(٢) أصل أسرة اقبال من كشمير ، وقلبه اضاء بالاسلام وشعره فيه نفحات شعراء شيراز ، حافظ وسعدى وغيرهما .

(٣) مثل كم الزهرة ضيق معقد .

لعن الروض والزمان ونادى بثبور لنفسه والطيور
ورأى وسمة الشقائق جورا وطِلَسم البرعوم خدع غَرور[1]
قال : دار على اعوجاج أقيمت كل صبح فيها الى ديجور
ناح حتى تقاطرت نغمات من دماء بدمع عين غزير

وشَجيا الهدهدُ النواحُ فوافى
ينزع الشوك من جناح الكسير
قال : أخرج من كل خسرك ربحا
مَزّق الورد صدره للعبير [2]

واجعل الجُرح بلسما فسترضى
وألف الشوك تغدُ كلك روضا

***

هذه أمثلة من رسالة المشرق يرى فيها القارىء افتنان اقبال فى شعره عامة ، وفى تصوير مذهبه خاصة .

وأردف هذه بأمثلة من ديوان ضرب الكليم . وهو كما بينت فى مقدمته ، وفى الفصل الأول من هذا الباب ، أقرب الى الفلسفة منه الى الشعر ، وآراء اقبال فيه مقسمة على أبواب فى موضوعات شتى ، كأنه كتاب .

تكلم الشاعر عن الاسلام والمسلمين ، والتربية والتعليم والفنون الجميلة والسياسة ، ووصل كل هؤلاء بمذهبه فى الذات وتقويتها وصلا ظاهرا أو خفيا . وقدمتُ نماذج من شعر هذا الديوان فى الفصل : « مذهب اقبال فى الفنون الجميلة » والفصل : « مذهب اقبال فى الشعر

(١) راى السمه السوداء فى الشقائق ظلما لها . وهذه السمه فى خيال الشعراء حرقه او وسمه كى او لوعه حب . والبرعوم المطبق على نفسه راى فيه الفيلسوف المتشائم خداعا فى هذه الحياة .
(٢) يتفتح الورد ليفوح ريحه .

خاصة » • فحسبي هنا أمثلة قليلة في موضوعات أخرى •

آبيات عنوانها : رجال الله

انما الحـرّ من يجيد ضرابا	لا الذى حرّبه تدور هرّاء
وسجايا الأحرار تجمع تاجا	ذا سـناء وخـرقة وقباء [1]
من خفايا ترابهم أخـذ الدهر	شرارا فصـاغ منـــه ذكاء
فطرة حرة تعـاف الدنايا	من طواف الأصنام عاشت براء
آلت في الكفر والتدين جمعا	وثنى تقـــدس الأهـــواء

***

وهذه صفة المؤمن من صفات كثيرة وصفه بها الشاعر الكبير :

في الدنيـا

مع الصحب لين كمس الحرير	بعيد من المحـك المؤمن [2]
شـديد اذا ما طغى باطـل	وكالليث في المعـرك المؤمن
من الطين لكن على الأرض يسمو	ويأبى عـلى الفلـك المؤمن
وما همه صـيد طير ولكن	تصيـد من الملـك المؤمـن

في الجنـة

تقول الملائك في غبطـــة :	حبيب الى قلبنـــا المؤمـن
وللحور شكوى الى ربها :	سريع الى هجـــرنا المؤمن [3]

***

وانظر هذه المحاورة بين الخالق تعالى وابليس في آبيــات عنوانهــا : القدَر • والفكرة مأخوذة من ابن عربي •

---

(١) الحر لا يتغير بالاحوال المختلفة . ربما يكون في وقت واحد ملكا ذا تاج وصوفيا ذاخرقة وشيخا ذا قباء .

(٢) القافيه مردوفه بكلمة المؤمن . والروى الكاف في الكلمات التي قبلها .

(٣) همته في الجنة سمو على الحور وكل متعة .

ابليس :

يا الاهـا أمـره كن — ليس عنـه من محيـد
لـم يصَب آدم منى — بعـدو أو حسـود
ويح غيرٍ مـن زمـان — ومـكان فى حـدود ١
كيفأستكبر عن أمرك — أو كيـف أحيـد ؟
كان فى علمـك أنى — لست أرضى بالسجود

الخالق :

هل عرفت السر هـذا — قبلُ أو بعد الجحود ؟

ابليس :

بعـدُ يا من تجليـه — كمـالات الوجـود

الخالق (ناظرا الى الملائكة)

خسة الفطـرة فيـه — لقنته الزور عـذرا
قال : ماشئتَ سجودى — أنا لا أمـلك أمـرا
ذلك الظـالم سمى — اختيـارا فيـه جبرا
انه سـمى رَمـادا — شـعلة فيـه وجمـرا

ولب المحاورة أن ابليس لم يعرف أن اباء السجود مقدر عليه الا بعد أن أبى . فالتقدير كان بعد ارادته . واقبال من دعاة حرية الارادة ، يقول ان الانسان يبلغ من الحرية والمكانة عند الله أن يكون عزمه متسيرا على القـدر .

وهذا خطاب

***

الى أمراء العرب

هل يسعد الكافر الهندى منطقه — مسائلا أمراء العرب فى أدب :
مَن أمة قبل كل الناس قد أخذت — بحكمة فأعاتها على النوَب :

---

(١) كيف احـد هذا الفر المقيد بالزمان والمكان .

(١) اجداد اقبال كانوا من البراهمة فلهذا يسمى نفسـه الكافر الهندى .

اخـاء كلِّ تقيٍّ دون تفرقة   وهجر كل غوىٍّ من أبى لهب
مامن حدود وأرض كان منشؤها   من أحمد العرب كانت أمة العرب

ينعَى على أمراء العرب التفرق والتفريق بين النـاس ويقول انهم أول أمة جاوزت حـدود النسب والوطن ، وآخت فى الناس كل مهتـد يتبع الرسول ، وهجرت كل غوىٍّ يتبع أبا لهب .

وهذه قطعة يسمو فيها اقبال على الأقوام والأوطان ، بل على الدنيـا والآخرة ، وينفث فيها قوة الحياة ونارها :

الى عصَبات العُرب ما أنا منتمٍ   ولا أنا هندى ولا أنا أعجمى
فقد حلَّقت بى (الذاتُ) تحليق نافر   يمرُّ على الدارين غيرَ محوِّم
بعينك أنى كافر غير مسـلم   وأنت بعينى كافر غير مسلم
فدينك تَعداد لأنفاس مُحجِم   ودينى احراق لأنفاس مُقدم[1]
تبدلتَ ، فالتبديل فى الشرع تبتغى   فليس بضيق الظبى شرعة ضيغم[2]
ولست أرى فى بيدك اليوم جِنَّة   تشبُّ بهذا العقل نار التقدم[3]
اذا حاد عن نار الحياة مُتَنَغِّم   فموت شعوب لحن هذا المنغِّم

***

واقبال يكرم المرأة كل اكرام ، ولكن لا يرى أن من كرامتها ما يسمى حرِّية فى هـذا الزمان . ويقول فيما يقول : لا بد من خـلوة المرأة الى نفسها فى بيتها .

وهذه أبيات من قسم المرأة من ديوان ضرب الكليم عنوانها :

الخـلوة

فضح العصرَ جِنةٌ بالسفور   نورُ عين ، وظلمةٌ فى الصدور
ان تجِئْ متعةٌ العيون مداها   كان منها الشتات فى التفكير

---

(١) هذا فرق بين المؤمن والكافر ، الاول يقدم محرقا انفاسه ، والثانى يحجم معددا انفاسه .
(٢) يكرر الشاعر هذا المعنى، ان المسلمين ضعفوا عن شريعة الاسلام فأولوها تأويلا يلائم ضعفهم .
(٣) استسلم المسلمون لقضايا الفلسفة والمنطق وتركوا الاقدام الذى لا يبالى شيء ، فليس فى صحرائهم اليوم المجنون الذى يعلم العقل الاقدام . يشير الى مجنون ليلى .

قطرةُ الماء لا تحوّل دُرّاً   دون أصدافها بقاع البحور

وأبيات أخرى عنوانها :

حصانة المرأة

في الصدر سرٌّ ليس يدركه   من حاز بردُ دمائه عصب :
حفظ الأنوثة في يدَيْ رجل   لا العلم يحفظها ولا الحُجب
ان غاب هـذا الحق عن أمم   فكسوف شمس نهارهم كُتب

وأختم التمثيل بقطعة في باب السياسة من ضرب الكليم عنوانها :

الى أهل مصر

من أبي الهول أتتني نكتة   وأبو الهول طوى السرَّ القديم[1]
كم شعوب بدّلت سرتَها   قوة لم يجفها العقل الحكيم
طبعها في كل عصر مائل   تبدل الشكل وتبقى في الصميم
فهي طورا في حسام المصطفى   وهي طورا في عصا موسى الكليم

خاتمة

هذا ما وسعه الوقت ، وأذنت به الشواغل من سيرة اقبال وفلسفته وشعره ، أقدّمه لقراء العربية مقدمة لما عسى أن يتلوه من نظر أوسع وأعمق في فلسفة هذا الشاعر الذي حمل الى الناس كافة ، والى المسلمين خاصة ، رسالة الحياة والأمل والقوة الروحية في هذا العصر .

وقد بلغ القلم هذه الخاتمة في مدينة كراچي والساعة خمس وربع [2] من ليلة الجمعة الرابع والعشرين [2] من رمضان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، الموافق الثامن والعشرين من شهر نيسان سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد .

والله حسبي وكفى . وهو المسئول أن يهدينا الى الحق ، ويرزقنا الاخلاص في كل قول وفعل .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه .

انتهى

---

(١) ابو الهول يمثل القوة والعقل . راس انسان على جسم اسد .
(١) بالوقيت العربي وهو يبتدىء من غروب الشمس .
(٢) بتوقيت باكستان . وهو الخامس والعشرون بتوقيت مصر هذه السنة .

فهرس الكتاب

داخل نمبر	۴۶۲۳۲
فن نمبر	~~۲ ج~~
کتاب نمبر	~~۱~~

مطبوعات باكستان
القاهرة
صندوق البريد رقم ٢٢١١

مطبعة « الصباح » بالقاهرة